ونفس وما سوّاها

د. سعيد الشبلي

الكتاب ونفس وما سواها

المــــــــؤلــــف د. سعيد الشبلي

تصميم الغــــــلاف: Hero

المراجعة اللغوية: MK

رقــم الإيــــــــداع: 2019-11405

الترقيم الدولى : 978-977-6590-98-4

الإخـراج الفنــــي: MK for Publishing and Distribution

المدير العام: محمد عبدالعال قاسم

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش احمد عبد الرحيم - الملك فيصل -جيزة

موبايل : 01003002847

البريد الإلكتروني: mkbookstor@gmail.

ونفس وما سوّاها
أسرار النفس البشرية
قراءة قرآنية

د. سعيد الشبلي

M.K
Publishing
Distribution

شكر وتقدير

لابد أن أشكر ابنتي الفاضلة الآنسة فضيلة بن زايد التي عملت على رقن صفحات هذا الكتاب، وبذلت جهدها بكل تفان وإخلاص شأنها في كل مرة أستعين بها. جازاها الله خير الجزاء ووفقها إلى ما تحب وترضى وإلى سعادة الدارين.

تقديم:

الشهادة لله هي كلمة السر، وهي نواة مشروع العمل الإنساني فوق الأرض، وهي خصوصية الذين آمنوا لأن من خالفوهم العقيدة لا يقدرون عليها. وعبر منطق الشهادة، وعبر أسلوب الشهادة وضمن حقائقها العظمى، بتأسس معنى الذات ومعنى الحقيقة ومعنى الخلاص في الإسلام؛ بل إن الشهادة كما قدمها القرآن قادرة على أن تعرّفنا ومن خلال منهج قرآني واضح بسيط عميق وصريح ما معنى أن يكون الإنسان إنسانا، وما الهدف من الحياة الدنيا، وما هي أسباب النجاة؟

إن الشهادة باختصار، رؤية كاملة للإنسان، ومنهج تربوي إسلامي يهدف إلى ترقية الإنسان إلى أقصى مستويات الإيمان (العقل)، وإلى أقصى مستويات الفعالية (العمل) وذلك عبر إمداد متواصل للعقل بالحق، وتلك هي كيفية تنشئة العقل وتأسيس بنيانه في هذه الذات الإنسانية: أن نمده باستمرار بالحق في كل تجلياته ومعانيه، وأن نبعد عنه الباطل الذي هو سبب دماره.

تمهيد

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كم صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

موضوع هذا الكتاب النظر في الإنسان من حيث قضاياه الوجودية وحقائقه النفسية والتكوينية، ثم النظر في أسئلته الكبرى التي ما فتىء يلقيها على نفسه ليحملها الفكر منه إلى العالم باحثا لها عن تأويل يقنعه. فإن أعجزه قصور الفكر دلّه روحه الإلهي على ربه، وحرّضه على قراءة كتابه السماوي الذي يعده لابلوغ الأرب في ميدان الحقيقة فحسب، بل أيضا بتحقيق ما يصبو إليه من طمأنينة النفس وسعادة الأبد.

تناولنا قضية النفس الإنسانية لنعيد طرح إشكالية المفهوم متسائلين عن حقيقة النفس وعن مراتبها وعن موقعها من ذات الإنسان ككل. ثم تطرقنا إلى مختلف أدوار هذه النفس وكيفيات تجليها وما يطرأ عليها من انقلابات لنعالج بعد ذلك القضية الأهم والمتمثلة في السعي إلى الإجابة عن سؤال: كيف تحقق النفس ظهورها الأمثل في ذات الإنسان ؟ وكيف تخلص في النهاية إلى نجاتها وسعادتها معا متجاوزة بالضرورة أسباب شقائها وخسرانها وهلاكها ؟. وفي سبيل إنجاز قول جدير بالاعتبار لدى أهل العقول، واعترافا منّا بأن تناول موضوع النفس في مطلق نفسها، أي بأن نجعل من أنفسنا الشاهد والمشهود قد لا يؤدي بنا إلا إلى تحبير شهادة زور لسنا نرغب فيها، عملنا على أن تكون قراءتنا قراءة قرآنية أي عبر استثمار النص الإلهي الشريف تدبرا ونأويلا وفهما وتفكيرا. ليس معنى ذلك بالتأكيد أن هذا التدبر رغم إخلاص النية والقصد موصل إلى ما نبتغي من التوفيق إلى حسن الفهم، ولكنه الاجتهاد الذي قد يخطىء حينا ويصيب حينا آخر، إلا أنه في كلا

الحالين مشكور بإذن الله تعالى.

رجاؤنا أن يكون هذا الكتاب، عونا لمن أراد أن يتعرف على الجانب الوجودي في الإسلام سواء من خلال كتابه المهيمن المتمثل في القرآن الكريم، أو من خلال ما تدبّره وأنجزه المفكرون المنتمون إلى هذا الدين والذين يصرون على أنهم إذ يفكرون في قضايا الإنسان ومصيره لا يصدرون عن عقل متحرر من كل قيد، بل عن التزام مبدئي برؤية القرآن ومنهجه ومقولته.

هذا، وإن منتهى الأمل أن ينفع الله سبحانه وتعالى بهذا الجهد وأن يرفعه في الصالحات، نسأله سبحانه أن لا يخيب الرجاء رغم العلم بالتقصير، فعليه أتوكل وإليه أنيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تطاوين، تونس في 22 ربيع الثاني
1430 هجرية.

1_ سفر التكوين

إن حديث النفس في القرآن الكريم حديث طويل عجيب. ومن الواضح أن النفس ليست من المعطيات الهينة. أما على المستوى المعرفي فهي ليست من المعقولات والمفاهيم السهلة. إنها على المستوى المعرفي كما على المستوى الوجودي من الموجودات الجامحة الطامحة المهتزة المرتجة التي تكشف في كل لحظة وحين عن نبإ عجيب وحديث أغرب من الغريب. إن النفس والإنسان يندمجان ويتخالطان ويتخاصمان ويتعارفان ويتباعدان. وقد يصدق أن تقول إن هذا الإنسان هو نفسه، كما يصدق أن نقول إن هذا الإنسان الآخر عدو نفسه. فما هي النفس حينئذ؟. يقول الله تعالى :» وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * « [1].

في لحظة غيبية من غيب الله الكبير الذي لا يعلمه إلا هو، خلق الله تعالى أنفسنا نحن البشر ولم يشهدنا هذا الخلق « مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً « [2].

وقد يكون هذا الخلق متزامنا مع خلق السماوات والأرض،وقد يكون بعده.

إن هذه المعلومات تدخل ضمن كهف الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢ -١٧٤

(٢) سورة الكهف: ٥١

فقد أخذ الله الذرية وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟.

وهؤلاء الذرية هم الناس (الخلق)، وهم بعد مطويون في غيب الله لم يزاولوا حياة الابتلاء فوق ظهر الأرض. فالإنسان أصلا ذرة قابلة للطي والنشر، حيث كان مطويا في ظهور آبائه واحدا فواحدا، ثم بعد مدة وفي زمن محدود معدود ينشر فيظهر. ففيمَ يظهر؟ إذا كان الإنسان في مرحلة من حياته مطويا في ظهور آبائه، فإن وجوده حينئذ يكون محضا أي أنه هو هو بدون أي اعتبار آخر، أما فوق الأرض فإنه يظهر بنفس.

وهنا قد تبدأ معلوماتنا عن النفس ومعانيها وحقائقها من خلال القرآن الكريم. وقد يكون معنى الكلام أنه تعالى أخذ الإنسان في محض ذاته وأشهده على نفسه (وهي وجسده الذي سوف يلبسه)، ألست بربك. فشهد الإنسان حينئذ أن الله ربه، وأنه لا يماري في هذه الحقيقة ولا يكذبها. وقد فعل الله تعالى هذا، واستخلص هذه الشهادة من الإنسان على نفسه قبل أن يقارفها مقارفة فعلية لكي يعطيه السيادة عليها بالشهادة عليها.

فالإنسان عندما كان مفصولا عن جسده (كونه الطيني الترابي)، لم يكن يرى حرجا البتة في الاعتراف الحقيقي المطلق والكامل بالله الحق الذي يراه ولا ينكره. وكذلك قال ذرية بني آدم بلى لما أشهدهم على أنفسهم أنْ « بلى « وهي الاعتراف بألوهية الله تعالى وربوبيته اعترافا كاملا واضحا، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها لما شق ظهور آبائهم وأخرجهم منها لكي يشهدوا أنه ربهم الواحد لا إله إلا هو.

جاء في لسان العرب:» فطر الشيء يفطره فطرا فانفطر وفطره: شقه، وتفطر الشيء : تشقق والفطر: الشق (...) وأصل الفطر : الشق ومنه قوله تعالى إذا السماء انفطرت.. وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم. والفطرة: الابتداء والاختراع. وفي

التنزيل العزيز : الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي أنا ابتدأت حفرها (...) والفطرة بالكسر الخلقة (...) والفطرة : ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة ، وقد فطره يفطره ، بالضم فطرا أي خلقه (...) وقال أبو الهيثم : الفطرة الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه، قال وقوله تعالى : الذي فطرني فإنه سيهدين، أي خلقني، وكذلك قوله تعالى : ومالي لا أعبد الذي فطرني. قال وقول النبي صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة ، يعني الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة(...) قال إسحاق: ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم، على ما فسر أبو هريرة حين قرأ: فطرة الله ، وقوله: لا تبديل يقول : لتلك الخلقة التي خلقهم عليها إما لجنة أو لنار حين أخرج من صلب آدم كل ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار(...)

قال أبو منصور : والذي قاله إسحاق هو القول الصحيح الذي دل عليه الكتاب ثم السنة. وقول أبو إسحاق في قول الله عز وجل: فطرة الله التي فطر الناس عليها: منصوب بمعنى اتبع الدين القيم، اتبع فطرة الله أي خلقة الله التي خلق عليها البشر قال: وقول النبي صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة ، معناه أن الله فطر الخلق على الإيمان به على ما جاء في الحديث: إن الله أخرج من صلب آدم ذريته كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم، وهو قوله تعالى : وإذ أخذ ربك من بني آدم...إلى قوله: قالوا بلى شهدنا قال وكل مولود هو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله خالقها ، فمعنى فطرة الله أي دين الله التي فطر الناس عليها، قال الأزهري والقول ما قال إسحاق بن ابراهيم في تفسير الآية ومعنى الحديث، قال: والصحيح في قوله : فطرة الله التي

فطر الناس عليها ، اعلمْ فطرة الله التي فطر الناس عليها من الشقاء والسعادة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : لا تبديل لخلق الله، أي لا تبديل لما خلقهم له من جنة أو نار.

ابن الأثير في قوله كل مولود يولد على الفطرة، قال الفطر: الابتداء والاختراع ، والفطرة منه الحالة كالجلسة والرِّكْبة، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد. ثم مثّل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم على مقتضى الفطرة السليمة ، وقيل: معناه كل مولود يولد على معرفة الله تعالى والإقرار به فلا تجد أحدا إلا وهو يقر بأن له صانعا وإن سماه بغير اسمه، ولو عبد معه غيره(...) وفي الحديث: عشر من الفطرة ، أي في السنة يعني سنن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام التي أمرنا أن نقتدي بهم فيها « [1].

ففطرة الإنسان حسبما نرجح هي الإيمان، رغم أن بعض من ذكرهم ابن منظور يذهبون إلى أنها ما خلق له الإنسان من خير أو شر. وقولنا إنها الإيمان خاصة أخذناه من قوله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون». فقوله أقم وجهك للدين حنيفا واضح في الدلالة على أن الفطرة هي هذا الدين الحنيف، وهو دين ابراهيم ودين الإسلام.

وهذا الدين الحنيف هو فطرة الله التي فطر الناس عليها والتي لا تتبدل «لا تبديل لخلق الله». فالدين القيّم هو الدين الذي يصل الإنسان عبر سلوك مسالكه وإقامة وجهه له إلى إظهار فطرته وهي ذاته العميقة المتمثلة في تلك الذرة منه والتي قالت «بلى شهدنا»

---

(١) _ ابن منظور، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر، مجلد ٥، مادة فطر، ص ص : ٥٥ _ ٥٨_

بدون مواربة وبدون تلجلج.

وهذه الذات العميقة هي الإنسان من حيث هو روح الله تعالى الذي نفخه في الجسد. هذا الروح من معدن إلهي خالص لا مراء فيه ولا خلاف ، وهو لا يَعرف له أصلا ولا نسبا إلا إلى ربه، فإذا ما أشهد فإنه يشهد أن الله ربه بل إن معلومته الشفرية الوحيدة هي كلمة لا إله إلا الله، وهي أعمق رسالة شفرية توجد في باطن الإنسان وآخر غيب هذا المخلوق.

فآخر غيب الإنسان باب يفتح على الله تعالى، وبيت موحد يذكر فيه اسم الله تعالى فقط لا سواه. إن روح الله لا يمكن أن ينكر ربه وأصله ومعدنه على الإطلاق، وهو على التحقيق الإنسان العميق والإنسان الكامل الذي سعى كثير من البشر عبر التاريخ الإنساني إلى اكتشافته ومعرفته.فالروح الإنساني ذرة واحدة موحدة بسيطة لا تركيب فيها، وهو لا ينتسب لشيء ولا يزيد ولا ينقص ولا يتبدل ولا يتغير، وهو على ما هو عليه من لحظة نفخه في الجسد الإنساني إلى لحظة ظهوره في الجسد إلى لحظة فناء الجسد إلى لحظة البعث. إنه من معدن إلهي ثابت واحد أزلي أبدي حق لا يعرف الاعتبارات ولا التلونات ولا كل التعليمات. وهو يعرف ربه مباشرة وبدون طريق وتعليم وتربية وباختصار، إنه رسالة فيها كلمة واحدة «لا إله إلا الله».

وهو دقيق في الحجم والمقدار لا تطاله اعتبارات الكم والزمان والمكان والكثافة، ولذلك فهو على الراجح نور لا وزن له ولا شكل، ولا يمكن التقاطه إلا من قبل سره وأصله وجاذبه الأوحد الأحد أعني الله الفرد الواحد الصمد تعالى الله وتقدس وتنزه. هذا الروح هو الإنسان عبد الله المكرّم المستخلف الموعود بالجنة. ووجوده على ما هو عليه دليل على أن جوهر الوجود الإنساني شهادة، وعلى أن أعمق الكلام في ذات الإنسان أنه كائن شاهد

وشهيد.

شاهد على أن الله واحد. وأن رسالة الإنسان في جوهرها هي رسالة الوحدانية والتوحيد، وأن بلوى الإنسان في جوهرها ابتلاؤه بإمكان الكفر والشرك والنفاق. وأن الإنسان لم يضيع شيئا إذا شهد، وضيع كل شيء إذا لم يشهد. لمّا أشهد الله الأرواح (الذرية) على أنفسهم قالوا بلى شهدنا بدون لبس ولا تردد ولا موارية.

فعلام أشهدهم على أنفسهم ؟ لقد أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟

تلك هي حقيقة الرسالة حينئذ، وذلك هو جوهر المطلوب، وهذا هو سبب وجودنا فوق الأرض نعاني ونكابد ونشقى ونسعد. فالشهادة المطلوبة ليست للإنسان ولا لسواه من الخلق، إنها لله: ألست بربكم؟ .

ليس وجود الإنسان من أجل أن يثبت ذاته، ولا من أجل أن يعترف بغيره؛ إنه وجود من أجل الاعتراف بشيء واحد : أن الله واحد رب الإنسان، وأنه لا رب للإنسان سوى الله تعالى.

وهنا، نحن أمام آخر وأصل حقائق الوجودية الإيمانية التي تقوم على الشهادة والاعتراف بالله الواحد الأحد. هاته الشهادة التي إذا تمّت نتج عنها حضور الإنسان وظهوره بكل معانيه وأبعاده، ونتج عنها استحقاقه الانضمام إلى الوجود المطلق الكلي الذي لا عدم يعروه.

فالله هو باب الإنسان إلى ذاته، وعلى الأصح فالله هو تأويل الإنسان ومنتهاه.

فإذا وصل الإنسان إلى ربه وصل إلى كل شيء، وصل إلى آخر معانيه وحقائقه(عبوديته المحضة)، ووصل إلى أقصى سعادته (الجنة): «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية

فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»[1].

إن مسار الإنسان مفصولا عن الله هو العدم نفسه يتخيل أنه موجود وما هو كذلك، وهو الوجود الإسمي الباطل من أساسه، وهو العوض الشيطاني الفاسد الذي يعوض أوليائه عدما (أسماء)، مقابل الوجود الحق الذي لا يتبدل. لذلك لا يلبث أولياء الشيطان في ضلال مبين، ولا يفتؤون يبحثون عن المعنى حيث لا معنى أصلا، ولا تزال الأسماء تغريهم و»المعابد» تتخايل أمام أعينهم، وكلما اتجهوا إلى صنم ازدادوا فراغا وشعورا بالهوان والغبن حتى يقضوا بدون طائل ولا فائدة.

إنها المأساة أن يحيا الإنسان مفصولا عن الله، وأن يتصور أن له وجودا منفصلا عن الله. فمن اتجه إلى الله، وشهد أن لا إله إلا الله بكل الطاقة وبكل الوسع وبكل الإمكان، كان من أهل الله ومن أهل الوجود الحق الذي لا يتبدل. ومن بقي يتأمل نفسه في محض الفراغ فإنه لا يجد إلا العدم وكل ما عدا الله فراغ وإن ظنناه وجودا. وقد نشأت الشبهة أصلا عن الأسماء.

فلما ظهرت الأسماء واستقلت عن المسميات والتبست بها دخلت الشبهة العلم، وأصبح صاحب الأسماء يتصور نفسه على علم وما هو كذلك، لأن علم الأسماء هو علم الوهم، والعلم الحق هو علم المسمَّيات أو العلم بالمسمّيات.

أما الأسماء في ذاتها فأوهام لا تدل على شيء، ولا تهدي إلا إلى الباطل، وأمر صدقها موكول إلى من يقوم عليها حفيظا وكيلا. ألم تر إلى الشيطان لما قام على الأسماء أفسد نظامها وجعلها فخا للإنسان «ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين[2].

---

(١) سورة الفجر: ٢٧ _ ٣٠

(٢) سورة الأعراف : ٢٠

فأغراهما بالوجود الملكي وبالخلود من خلال الاسم. أما الحقيقة فهو لا يقدر على التصرف في أكثر من الإسم. وهذه نقطة ضعف الشيطان الرئيسية: أن حدوده حدود الأسماء، أما الوجود الفعلي فلا نصيب له فيه بحال. فمن رفع عنه حجاب الأسماءفقد رفع عنه حجاب الشيطان. ولا يرفع حجاب الأسماء إلا بظهور المسمّى وتجلي الوجود المباشر بدون خطاب، وهو التوحيد الخالص. أشهده الله على نفسه فشهد.

2 - النفس والروح

فما هي هذه النفس التي شهد عليها الإنسان ؟

إنها والله أعلم، الجسد. وقد جاء في لسان العرب أن من معاني النفس : الجسد. فالإنسان وهو في مستوى الروحانية المحضة، أشهد على نفسه قبل أن يقارنها فأجاب: بلى إن الله ربي. فتكلم بحقائق الوحدانية الصافية المحضة، ولم يكترث باعتبارات النفس وهي موطن الكثرة ومجال الكون والفساد.

غير أن مرحلة اقترانه بهذه النفس سوف لن تكون رحلة سهلة ولا عبورا يسيرا، بل سوف يثقل السر حتى يخفى، وسوف تنتاب الغفلة الشاهد، بل سوف يغفل عن حقائقه ويغيب في أهواء النفس لكي تظهر ذات أخرى مصنوعة من مادة هذه النفس ذاتها، إنها النفس الأمارة بالسوء. صنعت في مصنع النفس وهي لا ترى إلا نفسها ولا تعرف وجودا منفصلا عن النفس وعن آبائها وأجدادها. فتاريخ النفس الأمارة بالسوء ، تاريخ الآباء والأجداد، وتاريخ الزمان والمكان. وهي أمام هذا التاريخ، قابلة مصنوعة سلبية لا تستطيع رفض شيء «إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم.. الآية».

ضمن نص الروح هناك رسالة واحدة وحيدة، هي التوحيد الخالص. وضمن نص الجسد هناك أكثر من رسالة. فقد مُكّن الشيطان أيضا من الكلام داخل هذا النص ومن استعمال مصطلحات هذا الكتاب. ولذلك كان خطاب الجسد خطاب الزمان والتاريخ والقبل والبعد، والآباء والأولاد.

إنه خطاب النسبية بكل انشطاراته وإمكاناته وتنوعاته. وبصرف النظر عن طبيعة هذا الخطاب، فإن المفروض في حالة شهادة الروح على الجسد (النفس)، أن يتوحّد المعنى والهدف، وأن تتوحد

الشهادة لله؛ لذلك سميت الشهادة توحيدا أي دمجا للروح والنفس في شهادة واحدة أنه لا إله إلا الله.

وليس من المفروض البتة أن تكون النفس أصلا في حالة معارضة لمشروع الروح ولمقتضى رسالته، بل إنها قابلة للاطمئنان أصلا، أي الاطمئنان إلى الحق الذي جاء به الروح.

غير أن النفس تدخل عليها الآفات من كونها مستعدة لسماع أكثر من خطاب، فأذْنها ليست محجّرة على شيء، بل هي قابلة لسماع كل شيء، قادرة على أن تسمع الله، كما هي قادرة على أن تسمع الشيطان: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها». إنها قد سوّيت على هذه الشاكلة: السماع والوعي عن الجميع، وفي النهاية يكون موقفها ونوعيتها بحسب من تسمع عنه وتأخذ منه؛ فإن أخذت عن الروح كانت مطمئنة، وإن أخذت عن الشيطان كانت أمارة بالسوء لأنه يربيها تربية السوء.

ليست النفس في ذاتها إلا محلا قابلا، ولذلك ماثلت الجسد وظهرت فيه. فصحّ أن النفس هي الجسد، لأن الجسد في ذاته لا معنى له، ولا يوجد ما يفصله أصلا عن الأجساد الأخرى. ولا ينفصل الجسد بالفعل ويتميز إلا بحسب ما يتوفر فيه ويرسخ في أعماقه، أي بحسب ما يسكنه من وعي أو لاوعي.

ومن حقيقة أو زيف ومن وجود أو عدم. إن الجسد وجود موضوعي ليس قابلا للقيمة أصلا؛ وما تطرأ عليه القيمة وأحكامها إلا من قِبل ما يسكنه؛ فإن سكنه الروح وظهر فيه بآثاره كان نفسا مطمئَنة، وإن سكنه الشيطان وظهر فيه بآثاره كان نفسا أمارة بالسوء. وهذا الكلام عن الجسد يصدق على الحياة الدنيا؛ فهي ليست خيرا بذاتها ولا شرا بذاتها، وإنما بما يفعله الإنسان فيها، وكذلك الزمان والمكان. والخلاصة أن النفس ليست متهمة بالأصالة ولا مزكاة بالأصالة، إنها وجود موضوعي أو تجل موضوعي لما يقرّ فيها وما يستقر في

أحشائها. هذا إذا أخذنا النفس على أنها الجسد.

جاء في القرآن العظيم: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا»[1]. وجاء في سورة الأعراف «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين* فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون* أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون* ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون»[2]، وجاء في سورة التكوير «وإذا النفوس زوجت»[3].

ما هي هذه النفس الواحدة التي انشطرت فيما بعد لكي يخلق منها زوجها ؟

وما هو أو من هو هذا الزوج الذي جعل من النفس الواحدة ليسكن إليها ؟ ولماذا يسكن الزوج إلى النفس؟

ولماذا يتغشاها ؟ وما هو الحمل الذي حملته؟ فهل سبقت النفس (الأنثى) الزوج (الذكر) حينئذ على عكس ما يتصور الكثيرون ؟

أم أن الحقيقة خلاف ذلك؟ ولماذا تزوج النفوس يوم القيامة ؟ وما معنى تزويجها ؟

القرآن صريح في أن أصل البشر نفس واحدة خلق منها الله تعالى زوجها، وفي آية أخرى جعل منها زوجها على ما بين الخلق والجعل من التمايز.

---

(١) سورة النساء : ١

(٢) سورة الأعراف: الآيات ١٨٩-١٩٢

(٣) سورة التكوير: ٧

فاستصناع الزوج واستخلاصه من النفس ثم بالخلق، أي بالتكوين والاستخلاص من ذات النفس. فدل بذلك على أن مكونات الزوج ليست غريبة عن مكونات النفس، بل منها أخذت.

هذا الزوج الذي استخلص من النفس سوف تمثل له النفس مصدر سكينة واطمئنان. «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها»[1].

فالنفس أسبق في الخلق من زوجها، والحديث هنا عن الأنثى والذكر. فالأنثى من الذكر والذكر من الأنثى وليس هناك ما يدل على أسبقية الذكر إلا بقدر ما يمكن أن توحي الآية بأسبقية الأنثى، وخاصة عندما نلاحظ قوله تعالى: «وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا...»

فالزوج الذكر هو الذي يتغشى الأنثى عادة حيث يكون البادئ بعملية المباشرة. والحمل يكون من الأنثى والإثقال يكون من جراء حملها، ناهيك أن السكينة جاءت في أكثر من آية لتدل على خاصية الكيان والوجود الأنثوي.

ومن نفس الجذر سكن نجد المسكن وهو المحل الذي يسكنه الإنسان. يقول تعالى «وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم»[2]. ويقول « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا»[3].

فالنفس التي يسكن إليها الزوج بمثابة المنزل والمسكن الذي يأوي الإنسان، فثبت أن النفس محل يسكنه الزوج، وأن هذا المحل قابل للإخصاب بحسب الزوج. وكما يتغشى الزوج زوجه (نفسه)

(١) _ سورة الروم: ٢١. جمهور المفسرين على أن آدم هو السابق في الظهور وما خلقت حواء إلا من ضلعه إلا أن الرازي يشكك في هذه الرواية ولا يرى دليلا يسعف على تصديقها. راجع تفسير الفخر الرازي(مفاتيح الغيب)، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥، مجلد ٨، ص ٩٣ وما بعدها.

(٢) سورة ابراهيم: ٤٥

(٣) سورة القصص : ٥٨

فتحمل، فكذلك تكون الأرض بالنسبة لماء السماء محلا للقبول وللتأثير، حيث ينشأ عن نزول الماء حصول الخصوبة وظهور الثمر. وكذلك استعمل الله تعالى نفس مصطلح السكن في هذه العلاقة «وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض»[1].

فالنفس والمسكن والأرض والليل حيث يقول تعالى: «فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا»[2]، ويقول «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا»[3]، كلها مَجَالٍ لمعنى أساسي واحد معنى القبول والاستفادة والأخذ والسكون إلى الزوج. ولذلك، لا معنى للمسكن بدون ساكن، بل إن غاية وجود المسكن إيواء الساكن. ولا معنى لوجود الليل بدون النهار، فغاية سريان الليل بلوغ الصباح وظهور النهار. ولا معنى ولا قيمة للأرض بدون ماء. فمبدأ حياة الأرض يكون بنزول ماء السماء.

فالنفس تطلب الزوج ولابدّ. ولا معنى لوجود النفس وحدها أصلا، بل إن بناء النفس وهيكلها لا يكون له معنى إلا بافتراض الزوج. فالنفس بناء لا يعقل إلا بزوجه.

فزوج النفس هو عاقلها أي هو الذي يعطيها معناها من حيث هو الذي يولّد المعنى فيها، وينشئ الخصب والولادة، ويظهر الكامن من إمكاناتها ومن أسرارها. وعليه، فإذا كانت الأنثى نفس الذكر، فإن الإنسان بجمعيته في الاعتبار نفس واحدة هي محل لعاقلها وهو الله تعالى الذي لا يفهم لها معنى من دونه، ولا يرتجي منها خصب إذا لم يتولها سبحانه وتعالى بالنصر والتأييد والنفخ والتسديد.

فما هو هذا الزوج ؟

(١) _ سورة المؤمنون: ١٨

(٢) سورة الأنعام: ٩٦

(٣) سورة النحل: ٨٠

تكشف قصة مريم العذراء عليها الصلاة والسلام عن حقيقة الزوج الذي يقارف النفس ويتغشاها، وينشأ عنه بذلك الحمل والولادة. يقول تعالى:

«واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحها فتمثل لها بشرا سويا* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا»[1].

ويقول تعالى: «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»[2]

ويقول تعالى مختتما سورة التحريم: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»[3].

يتبين من قصة مريم العذراء العفيفة التي أحصنت فرجها، أن الزوج الذي أحبلها هو الروح، وهو روح الله تعالى الذي تمثل لها بشرا سويا.

فمريم ابنة عمران هي في الاعتبار النفس التقية النقية القانتة، أي التي لم تشرك بربها أحدا، والتي لم تجعل للشيطان عليها سبيلا. فلما أحصنت فرجها وهو في الاعتبار المحل القابل فيها، أي منعته عن شياطين الجن والإنس، تهيأت بالقنوت لله لقبول نفخ الروح الإلهي الذي تمثل بشرا سويا من أجل إيناسها وكيلا تفزغ، وإلا فهو الروح الذي نزل على الأنبياء بالرسالات من قبلها ومن بعدها.

(١) سورة مريم: ١٦-٢١

(٢) _ سورة الأنبياء:٩١

(٣) _ سورة التحريم: ١٢

فالنفس الرضية التقية القانتة لا زوج إلا الروح، روح الله الأقدس المبارك.

وبالتأكيد، فإن النفس المبتذلة والبغي الفاسقة زوجها الشيطان جنّا أم إنسا. يقول تعالى عن يوم القيامة «وإذا النفوس زوجت»[1]. فالتزويج للنفوس في يوم القيامة يكون بمن كان لها قرينا ومن كان لها زوجا في الدنيا.

نخلص إلى أن النفس محل قابل للزوجية، وأنه بطبعه يطلب الزوج، وهي مسكن يطلب الساكن، وليل يطلب نهاره «يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين»[2].

فإذا ثبت ذلك، كانت المعضلة حينئذ مرتبطة بالزوج. فالزوج الذي يمكن أن يطأ النفس ويزاوجها ليس واحدا؛ حيث أن هناك أكثر من زوج يطلب النفس وينازع على مزاوجتها ومقارنتها. وإذ كنا رأينا أن الزوج الحقيقي الذي تستحقه النفس الرضية هو روح الله في حالة مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، فإن زوج النفس البغي التي لا تعرف للشرف معنى، هو قرين الجن من الشياطين. يقول تعالى في المنافقين والكافرين «والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا»[3].

ويقول تعالى في سورة الزخرف: «ومن يعش عن ذكرالرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين* وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين* ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم

(١) _ سورة التكوير:٧

(٢) _ سورة الأعراف: ٥٤

(٣) _ سورة النساء:٣٨

في العذاب مشتركون»[1].

جاء في لسان العرب :» لقرين : الأسير (...) والقرين المصاحب... وفي الحديث: ما من أحد إلا وكل به قرينه أي مصاحبه من الملائكة والشياطين، وكل إنسان فإن معه قرينا منهما، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه، ومنه الحديث الآخر: فقاتله فإن معه القرين. والقرين يكون في الخير الشر(...)

والقَرَنُ والقرين: البعير المقرون بآخر، والقرينة الناقة: تشد إلى أخرى (...)والقرين: صاحبك الذي يقارنك ، وقرينك، والجمع قرناء.

والقرنان: الذي يشارك في امرأته كأنه يقرن به غيره (...)

والقَرُون والقَرُونة والقَرينة والقرين: النفس ويقال :أسمحت قَرُونه وقَرينه وقَرُونته وقرينَته أي ذلت نفسه وتابعته على الأمر (...) وقرينة الرجل: امرأته لمقارنته إياها» [2]

يتأكد من خلال ما تقدم مما جمعه العلامة ابن منظور، أن القرين هو المصاحب، كما أن الحديث المروي إذا صح يدل على أن كل إنسان وكل به قرينه. وهذا الحديث يجد مصداقه في القرآن على كل حال. ويتبين كذلك أن العرب استعملت للنفس اسم القرين والقرون والقرينة والقرونة من حيث أن النفس لابد أن تقترن بزوج.

إن القرآن يستعمل القرين في المعنى السلبي أي الشيطان المزاوج للنفس الكافرة. ويذم الله أولئك الذين قارنهم الشيطان جزاء بسوء أعمالهم «ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا»[3].

ولا ريب أن ورود هذه الآية في سورة النساء ليس اعتباطا، بل لدلالات وأبعاد وحقائق.. إن هذا القرين الفاسد من الشياطين

---

(١) _ سورة الزخرف: ٣٦-٣٩

(٢) _ لسان العرب، مجلد ١٣،، مادة قرن، ص ص ٣٣١ _ ٣٤١

(٣) _ سورة النساء: ٣٨

يطالب بحقه في النفس الإنسانية إذا أعرضت عن ذكرالرحمن «ومن يعش عن ذكرالرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين»[1]. فمقارنة الشيطان للنفس الإنسانية مشروطة بغفلة هذه النفس عن ذكر الله تعالى؛ حينئذ تكون مسكنا مباحا للشيطان يعبث فيه ويفعل فيه ما يشاء.

ولا تشعر النفس بسوء أفعال القرين وبالتعاسة الكاملة والهلاك الذي أوردها فيه إلا عندما تأتي ربها. حينئذ تعلم كم كانت جاهلة ومستلبة وتائهة وضالة: «حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين»[2].

وورود هذه الآيات في سورة الزخرف أيضا له دلالاته الهامة في مسألة المقارنة الشيطانية للنفس الإنسانية؛ فمرقى الشيطان إلى النفس زخرف الحياة الدنيا، وكلها في الأصل زخرف. فإن ميّزت النفس بين الألـوان والأصباغ، ومازت الفضة من الذهب، علم الشيطان حينئذ أنها من نصيبه، وعمل جاهدا على مغازلتها بشتى الصور حتى تخضع وتستكين وتفرح بما يقول وما يصور، حينئذ ينقضّ عليها ويقارنها فلا تشعر أنها تغتصب إلا كما تشعر البغيّ أنها تغتصب وهي تعطي جسدها لقاء المتعة أو بنقود.

إن النفس لا هوية لها بنفسها أو في نفسها، وإنما هويتها تبدأ بمن يقارنها، لتظهر بثمرة المقارنة واضحة جلية. ولذلك قال تعالى عن مريم ابنة عمران: «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها آية للعالمين»[3].

إن قوله تعالى «والتي» إضراب عن الاسم لأنه لا معنى له، وتأكيد على جوهر حركة وفعل هذا المحل «أحصنت فرجها». إن قوة

(١) _ سورة الزخرف : ٣٦

(٢) سورة الزخرف: ٣٨

(٣) سورة الأنبياء: ٩١

النفس الحقيقية وفضيلتها الأساسية في إحصان فرجها، لأن النفس هي أساسا فرج قابل للإحصان كما للانفراج والبغاء. فإذا أحصنت النفس فرجها، انتمت حينئذ إلى نوعية خاصة من النفوس الطاهرة النقية، وحق أن يزوجهاالرحمن بأكرم ما لديه: روحه المقدس الأقدس. يقول تعالى «فنفخنا فيها من روحنا».

فهنا يتضح بجلاء أن النفس محل فارغ يتطلب الملء، فلا يقع النفخ في الحديد مثلا، وإنما يقع النفخ في الأوعية الفارغة القابلة لدخول الهواء فيها.

ولا يكون النفخ إلا من فُرجة في المنفوخ فيه. فلما نفخ الله تعالى فيها من روحه امتلأت وحملت وأثقلت، وأجاءها المخاض، وولدت. فماذا ولدن ؟ لنستمع إلى المولود يتكلم بنفسه: «قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا * والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا* ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»[1].

الجواب كان جاهزا من لدن المولود «قال إني عبد الله».

لقد ولدت مريم عبد الله أي المخلوق الذي صنعه الله على عينه؛ فالعبودية هنا عبودية الخضوع والامتثال والحمد والشكر، وليست العبودية بالمعنى العام أي الخلق فقط، والتي تستوي في الاعتراف بهاطوعا أو كرها كل الكائنات .

إن عبد الله عيسى بن مريم، هو الإنسان الخاضع لله، وهو ابن مريم وثمره نفخة الروح. فوالده الروح الإلهي هو الذي أخصب والدته مريم عليهما السلام. فعلمنا أن مُذكر النفس هو الروح على سبيل اليقين، وأن أكمل أنواع الزوجية زواج النفس التقية بالروح.

(١) سورة مريم:٣٠-٣٥

حينئذ يكون المولود آية بإذن الله، ويكون مباركا. أما النفس الخبيثة البغي التي أباحت الحرم الشريف وتركته عرضة للرائح والغادي، فهي أحرى أن لا تلد إلا الخبيث من الخلق، وأن تنجب الثمرة الحرام والنبت النكد. جاء في الكتاب العزيز: «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون»[1].

إن الشيطان لا يسعى لتوليد النفس أصلا، بل يسعى إلى تعقيمها وقطع رحمها وإجداب أرضها.

فإن أخرجت نبتا، فلا يخرج إلا نكدا والعياذ بالله، ولذلك حق لنا أن نتشاءم كمسلمين من عمليات تعقيم الأرحام، وأن نرى فيها عملا شيطانيا لا فأل فيه ولا خير فيه*.

وإذا كان الشيطان يقارن النفس البغي فيصمها بالعهر، ويجعلها مطية كل راكب من الإنس والجن وذلك عبر التخويف أو الإغراء، فلا تستعصي عليه وعلى أعوانه، فإنه يطمع ولاشك في تعرية كل نفس إنسانية وفي مقارنتها.

ولذلك نجد النفس الناجية تتحدث عن القرين الذي كاد يرديها، وتطّلع يوم القيامة من شرفات الجنّة فتراه وحده في سواء الجحيم، فتحمد الله على ذلك، ويكون ذلك من أسباب سعادتها، يقول تعالى عن أصحاب الجنة وما يتحاكونه فيها «فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أءنك لمن المصدقين * أءِذا متنا وكنّا ترابا وعظاما أءِنا لمدينون * قال

(١) سورة الأعراف:٥٨

* يذهب الفقهاء في معظمهم إلى القول بإباحة تنظيم النسل إذا ما اقتضت المصلحة ذلك، ويستندون في هذه الإباحة إلى أدلة لابأس بحجيتها مثل أعمال الصحابة الذين أثر عنهم استعمال طريقة « العزل» وهي أسلوب من أساليب الإضراب عن الإنجاب. أما التحديد الكامل للنسل وتعقيم الأرحام، فعمل لا يباح شرعا إلا لضرورة قاهرة دخولا تحت قاعدة الضرورات تبيح المحظورات.

هل أنتم مطلعون * فاطّلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله غن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين»[1].

هذا موقف حق يتبين فيه حال عِباد الله المخلصين. وهنا نعرف معنى أن يكون الإنسان عبدا مخلَصا. إن الخلاص الحقيقي إنما يكون من القرين الذي يسعى في مقارنة النفس وإخضاعها قصد إذلالها وإفسادها باطنا وظاهرا والعياذ بالله.

لا ريب أن القرين الشيطاني قد مارس الإغراء على العبد المخلَص، غير أن نعمة الله كما قال المخلَص، سبقت بتخليصه من براثن اللعين الذي ما إن يتهيأ للانقضاض على النفس «إن كدت لتردين»، حتى يخلّصها الله منه برحمته تعالى وبكلماته التامات وصراطه المستقيم وبسرّ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبسر الدعاء «رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون»[2]، وبسر المعوذتين. إن كيد الشيطان إذا جوبه بأسرار القرآن وعلومه وآياته البينات يضعف ويضمحل؛ وهل للشيطان مع الله كلام أو تدبير أو تعمّل أو مقدرة. وإنما جلّ عمله فصل الإنسان عن الله بأن يوحي إليه بأنه صاحب نفسه وسيدها وربها ومدبّرها.

وهذا الكلام مما يلذ للإنسان سماعه، حيث تختفي في أطوائه كل نوازع وشهوة الربوبية والتأله، فإذا صدّق الإنسان هذا الكلام، ورضي بل وفرح بحريته التي اكتشفها، فإن الشيطان لا يتركه إلا مسافة ما تقرّ الفكرة في ذهنه وتصدقها نفسه، ثم يبدأ في العبث به عبثا دونه عبث اللئام بالأيتام والمنافقين بالمؤمنين إذا ظهروا عليهم.

نعوذ بالله من سوء المنقلب.

ترفض النفس المؤمنة مقارنة الشيطان (القرين)، وحينئذ تصبح

(١) سورة الصافات: ٥٠-٥٧

(٢) سورة المؤمنون: ٩٨

عبدا لله مخلصا لا يلد بإذن الله إلا عبدا مخلصا.

إن الزوج يكون من جنس النفس ومن نفس طينتها، فإن كانت نفسا حصينة تقية كان الزوج روحا طاهرا، وإن كانت النفس فاسدة كان الزوج خبيثا فاسدا.

لذلك قال تعالى في سورة النور «الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم»[1].

ابتدأ الله بذكر صفة النفس «الخبيثات للخبيثين» و«الطيبات للطيبين»، فدلّ على أن نوعية النفس جاذبة لنوعية الزوج والقرين. فالنفس الطيبة يستحيل أن تجتذب خبيثا، والنفس الخبيثة يستحيل أن تجتذب طيبا.

إنه قانون ثابت : أن لا تقارن النفس إلا قَرَنَها أو قـرْنَها الذي يحمل نفس خصائصها، لأنه حينئذ يسكن إليها ويفنى فيها ليصبحا نفسا واحدة. فإن وقع تجاوز هذا القانون بنوع من أنواع التعمية أو الإكراه فاقترنت الخبيثة بالطيب أو العكس، يبرىء الله النفس الطيبة من مزاوجة القرين الخبيث كما برأ امرأة فرعون من كونها قرينة له وزوجا حتى لو كانت في واقع الأمر امرأته. ويبرئ سبحانه الروح الطاهر من مقارنة النفس الخبيثة كما برأ نوحا ولوطا من امرأتيهما وما كانتا تفعلان.

(١) سورة النور: ٢٦

3_ النفس الأمارة بالسوء

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين * وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»[1].

في هذه الآيات الثلاث من سورة التحريم تنكشف الحقائق الأساسية للنفس الإنسانية في علاقتها بالروح وتبرز معاني فجورها وتقواها وما ينشأ عن كل مسلك منهما من النعيم أو الجحيم.

فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين صالحين من عباد الله، وقد عبّر الله تعالى بقوله «عبدين» تأكيدا لتواضع النبيين الصالحين وأنهما لم يكونا من المتكبرين؛ ووصفهما بكونهما «صالحين» تأكيدا على أنهما لم يكونا من الجبارين، فنفى عنهما الكبر القلبي (الكفر)، والإجرام (الفساد السلوكي).

وبالرغم من كون هذين العبدين الصالحين على ما بيّن الله تعالى من حسن الصفات، فإن امرأتيهما خانتاهما، وكان جزاؤهما بذلك النار؛ ولم يغني عنهما شيئا أنهما كانتا امرأتي نبيين. هذا المثل الذي ضرب للذين كفروا يكشف الله تعالى به عن حقيقة النفس الكافرة، وأن كفرها إنما هو منها لا من سواها، وأنها لمّا كفرت فبحريتها التامة وباختيارها، وأن كفرها موقف ذاتي وشخصي لم تتأثر فيه بشيء رغم الادعاءات القولية للكافرين ومن شابههم إن في الدنيا أو في الآخرة.

---

(١) سورة التحريم: ١٠-١٢

فهاتان امرأتان كل واحدة منهما امرأة نبي مدحه الله بكونه عبدا صالحا، غير أنهما وبخبث رسخ في نفسيهما، واستجابة لغواية الشيطان الرجيم خانتا رجليهما. فعلمنا من ذلك أن النفس تملك وبقرار إلهي حاسم صارم، قيّوميةً على نفسها مطلقة، وأنها رغم كونها معقولة للعقل وموطوءة للروح، إلا أنها حرة حرية مطلقة في قبول مزاوجة الروح أو مزاوجة الشيطان. لقد عبّر الله تعالى بقوله «امرأة نوح وامرأة لوط...»، ولم يقل زوجة نوح وزوجة لوط،، وفي هذا التعبير تدقيق باهر، حيث أن الزوجية باعتبارها مقارنة حرة حبّية بين النفس والروح لم تحصل هنا، وجل ما حصل ارتباط شكلي اجتماعي «امرأة فلان». فالتعبير عنها بالمرأة يدل على علاقة ظاهرية محض اجتماعية. وهذه العلاقة الاجتماعية لم تتجاوز هذه المرتبة لتصبح علاقة زوجية قائمة على الاختيار والقبول والحب المتبادل، أي على رضا النفس بالروح وتواضعها له كمصدر للخصب والولادة والنماء.

ولم يكن المانع غياب الروح المخصب والعقل النير الصالح (العبد الصالح)، بل لقد كان حاضرا في الحالتين كأبرز ما يكون الحضور، وهل مثل النبي في إشراق روحه واستنارة ضميره وقوة عقله !

وإنما كان المانع امتلاء النفس بزوج آخر هو الشيطان الرجيم إنسيا كان أم جنيا. ومعلوم عندنا أن النفس لا تقبل زوجين في وقت واحد، بل هي نفس واحدة لزوج واحد. ولها مطلق الحرية في اختيار الزوج. فلا يجوز في شرعنا زواج المكرهة « ولا طلاق المكره، وما دامت هاتان النفسان قد رضيتا بمزاوجة الشيطان «فخانتاهما»، فإنهما على ذمة من زاوجتاه بالرضا والعشق والحب، وليستا على ذمة العبدين الصالحين. ولذلك لم يكن مآلهما إلى إتمام الزوجية بل إلى قطعها وإلغائها، فهما من أهل النار. أما العبدان الصالحان نوح ولوط عليهم السلام، فهما من أهل الجنة، ولا صلة مطلقا لأهل الجنة بأهل النار. لقد نجا نوح ونجا لوط

من عذاب عظيم في الأرض وفي السماء، وقطع الله علاقتهما بامرأتيهما بدءا من لحظة الانفصال بين الكافرين والمؤمنين. قال تعالى لنوح وهو يعدّه للنجاة من الطوفان الغامر «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل»[1].

فاستدراكه تعالى بقوله «وأهلك إلا من سبق عليه القول» يتعلق بابنه الآبق وبامرأته الخائنة والله أعلم.

أما في حالة لوط عليه السلام، فقد أشار القرآن صراحة في أكثر من آية إلى أن امرأته كانت من المعذبين، جاء في سورة العنكبوت « قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين»[2].

إن هذه العلاقة رغم حصول الزوجية فيها من حيث الشكل، إلا أنها ليست علاقة زوجية بل علاقة اجتماعية وارتباط شكلي جسدي بحت، أما النفوس فلم تتزاوج.

وهنا نفهم معنى قوله تعالى «وإذا النفوس زوجت»[3].

فعديد النفوس في هذه الدنيا تدعي التزاوج مع نفوس أخرى إنسانية وهي في الحقيقة متزوجة لشياطين جنية.

وعديد الرجال يدعون الزواج بأنفس إنسية وهم متزوجون ومقارنون لأنفس شيطانية خبيثة. ولذلك يعتبر يوم القيامة يوم الفضيحة، ويوم هتك الأستار وظهور الأسرار، ومن أخطرها شأنا: ظهور كل

---

(١) سورة هود:٤٠

(٢) سورة العنكبوت: ٣٢-٣٣

(٣) سورة التكوير:٧

نفس كما هي بدون لباس ومعها زوجها الحقيقي. فالنفوس التي قارنها قرين الجن واستعبدها وملأ أقطارها واغتصبها برضا أصحابها وهو أعجب أنواع الاغتصاب، سوف تظهر ومعها قرينها الذي أطغاها وأفسدها.

وكذلك للرجال الذي كانوا يدعون الزواج بأنفس إنسانية شريفة، سوف تظهر بواطنهم فإذا أغلبهم من مقارني الشياطين ومن ناكحي الجنيات الخبيثات الفاسدات...

كل ذلك سنراه (بأعيننا) وببصر حديد بعد أن كنا نراه في بواطننا ولا ننكره، نعوذ بالله من سوء المنقلب.

4_ النفس المطمئنة

المثل الثاني الذي ضربه الله تعالى للذين آمنوا لكي يعرّف به الأنفس المؤمنة، هو مثل امرأة فرعون «وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين»[1].

هنا أيضا عبّر الله تعالى بقوله «امرأة فرعون» ولم يقل «زوجة فرعون» لأن الزوجية لم تحصل. غير أن المانع لم يكن هنا من قبل النفس، بل كان من قبل الروح.

فامرأة فرعون تظهر من خلال الآية ومن خلال آيات أخرى امرأة طيبة حنونا، مؤمنة خاضعة لحكم ربها. أما فرعون فهو مضرب المثل القرآني في الجبروت والطغيان «إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين»[2].

هو ذا رجل مفسد متجبر متكبر، علا في الأرض، فعلا بالتبعية على امرأته. وعلوه قد لا يكون ظاهريا بل باطنيا بعدم السكون إليها، ورفض المنطق الزوجي من أصله، وادعاء التأله والأحدية، ورفض الزوجية التي هي أهم حقائق وقوانين الرحمانية. وفي كلمة، لقد أصبح فرعون «الإله» شيطانا من أشد شياطين الإنس طغيانا وإجراما، كيف لا وقد بلغ المنتهي بإدعائه الالوهية والربوبية: «فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى «[3].

إن امرأة فرعون أنموذج للنفس الرضية التقية التي لم يتم زواجها

---

(١) سورة التحريم: ١١

(٢) سورة القصص: ٤

(٣) سورة النازعات: ٢٣-٢٦

من قِبل روح طاهر، فصبرت واتقت واتجهت إلى خالق الروح تعالىَ طالبة أن يبني لها عنده بيتا في الجنة. والبيت كما نعلم، رمز الزوجية وموطنها.كما طلبت أن ينجيها الله تعالى من فرعون وعمله، وأن ينجيها من القوم الظالمين. فقد رفضت حينئذ، أن يقارنها الشيطان أي فرعون، ولم يكن له منها إلا علاقة المساكنة الظاهرية الاجتماعية الشكلية، أما في الباطن، فهي نفس عذراء قانتة لربها، منتظرة لوعده الذي سيهبها من كرمه وسيزوجها بمن شاء من عبيده المكرمين الأطهار، وهو تعالى على كل شيء قدير. ولقد يزداد هذا المعنى توضحا عندما نتبين أن العلاقة بين فرعون وامرأته لم تثمر أطفالا، وفي ذلك إشارة قرآنية عميقة إلى أن فرعون كائن عقيم. كيف لا وهو شيطان رجيم من أسوأ الشياطين. يدلنا على عقم فرعون قول امرأته له لما عثرا على موسى عليه السلام بعد إذ حمله اليم إليهما «وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون»[1] يتبين من المثلين السالفين عديد الحقائق الأساسية والخطيرة بشأن النفس الإنسانية:

فأولا: إن النفس الإنسانية محل قابل لفعل الروح أو فعل الشيطان. وهي في حال كونها منفعلة قابلة، تعبّر عن الحقيقة الأصيلة العبدية للإنسان ولكل مخلوق على الجملة. فكل مخلوق هو منفعل بالضرورة، وهو محلّ بما هو مصنوع مخلوق مبني من قبل ربه تعالى. ولذلك كان الإنسان في جوهره نفسا قبل أن يكون روحا. ولذلك قال تعالى «هو الذي خلقكم من نفس واحدة».

(١) _ سورة القصص: ٩. نحن لا نجزم أن امرأة فرعون المؤمنة هي نفسها التي ربّت موسى عليه السلام وأشفقت عليه، فالفراعنة كثيرون. إلا أن سياق التأويل يتلاءم مع هذا التحليل ويدعم هذه المقاربة، فإن كان حقا فمن فضل الله تعالى ومنّه وهدايته، وإن كان خطأ فمنّي، وحسبي أني أسوق جهدي هذا كله تحت شعار الاجتهاد والمقاربة مع التسليم لله سبحانه بأن العلم له وحده. أسأله سبحانه الولاية والتأييد.

فالإنسان أصلا هو نفس ذكرا كان أم أنثى، أي أنه مخلوق قابل منفعل، متأثر، عَدَمٌ بالأصالة، وليس وجودا إلا بإيجاد ربه له تعالى، قال الله لزكرياء لما استغرب كيف يهبه الله الابن وهو عقيم وامرأته عاقر، «قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا»[1].

والإنسان بما هو نفس، أي بما هو عبد لله مخلوق من قِبَله، هو واحد في أوصافه، متحد في حقائقه. فالعبودية حقيقةَ الإنسان ذكرا كان أم أنثى. ولا تغيير البتة في الأوصاف العبدية الموضوعية التي تتجاوز قدرات الإنسان.

إنها المعطيات الأولى لمعنى الوجود الإنساني وحقيقته. ولذلك كانت النفس الواحدة التي خلق الله الناس منها هي الجسد.

فهي جسد واحد عبدي مخلوق مسوّى من قبل الله تعالى أظهر فيه الله تعالى عجيب صنعه وغرائب تركيبه، وقدّر فيه تعالى أقواته، وبنى فيه وشيد وزخرف ونجّد، فجاء أعجوبة الوجود. هذا الجسد الإنساني الذي تلون بكل لون، وتزخرف بكل زينة، وظهر بكل مظهر، وأظهر وأخفى، هو عندي أغرب خلق شهدته إلى اليوم، ولست أدري إن كنت سأشهد أغرب منه في حياتي هذه الفانية مع إيماني أن ما عند الله كثير، وأنه ما يعلم جنود ربك إلا هو.

هذا الجسد الذي علمنا اليوم وبفضل الله ومن خلال جهود العلماء من خفاياه الكثير، ولعل ما خفي أكبر وأغرب، هو عين النفس التي تتلون بألف لون، وتظهر بألف شكل، ولكنها للعليم، ليست إلا نفسا واحدة ولا تحمل إلا رسالة واحدة: أنها أمة الله.

فالجسد وجود موضوعي بالكامل، صنعه الله تعالى وتحكم في صنعه، وأظهره كما يريد، وأخفى منه وأظهر، وجعل له السر والعلن، وأنطقه وأنامه، وأضحكه وأبكاه؛ سبحانه جعل فيه القلب

(١) سورة مريم :٩

والعقل والفرْج ، سبحانه أقام أركانه ورفع بنيانه، وجمع فيه بين أعلى عليين وأسفل سافلين، سبحانه جعله قابلا لأن يكون جنة الصالحين، ومأوى للشياطين، سبحانه تجلى فيه بجبروته، وظهرت فيه عزته وأنه صاحب أسرار الوجود، وأنه القاهر فوق عباده. فهو آية الآيات وما الإنسان فيه ذرة في فلاة.

فإن شاء أن يكون فيه ضيف الله فله ذلك، وإلا فهو فيه الأيسر والطريد الشريد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يظهر الجسد كوجود موضوعي مطلق الموضوعية، ليس للإنسان إلا أن يسكنه حيث أسكنه الله فيه، وليس له إلا أن يقبل بوضعه فيه حيث كرّمه الله ورفعه ووضعه في قلب هذه المملكة.

وما على الإنسان وقد كرمه الله واجتباه، إلا أن يلهج صباح مساء بحمد الله وشكره، وأن لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل عليه أن يعبد رب الدار.

فإن علم حقيقة الدار، وأنها من صنع رب أوحد قاهر قهار، قام بالمطلوب، ونفى عنه وهم الربوبية، وتنحى عن الادعاء والقيومية، وفهم حقيقة النفس وأنها أصلا مخلوقة لله وليست له، وأنه لا يملك منها شيئا أصلا، وأنه إن كان أوجد فيها فإيجاد التشريف والتكليف والمنّ والعطاء من قبل الله تعالى، فلا يجوز له أن يدعي الامتلاك لذرة منها، وإنما هو بحسب التعليم القرآني خليفة لا يتصرف في ملك الله إلا بأمره وتأييده تعالى.

وإن تلاعبت به الأوهام، وظن أن النفس نفسه، والدار ملكه، وقام فيها إلها متحكما، فإنه حينئذ الشيطان المارد، والخلق المفسد الفاسد الذي يظن أنه قادر على الدار، وما هو قادر على شيء أصلا.

إن النفس لله، وهي إن تغيرت في التجلي فلمزيد الإيهام والإبهام والابتلاء، ولله أن يبتلي خلقه بما شاء هو الملك الحكم العدل

لا راد لحكمه. فيتصور الغرّ أن هذا الجسد الأنثوي أو الأبيض أو الأشيب أو الصغير...الخ، جسده الخاص، بل ويراه بعين الوهم مخالفا لبقية الأجساد وما هو للعين البصيرة كذلك. وضمن الرؤية التأويلية العميقة يبرز الجسد هيكلا واحدا ونفسا واحدة هي بيت الله تعالى وحرمه الآمن «ومن دخله كان آمنا»[1].

فمن سكنه حيث أسكنه الله، نعم فيه بالنعيم المقيم «وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون* وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين»[2].

ومن تصور أنه قادر عليه، وأنه مالك للأرض لا يراجع في ذلك أحدا ولا يستشير ولا يعبأ بسلطان فوق سلطانه، لا يلبث أن يتخطف من الأرض، وأن تحمله الشياطين إلى أسوأ مكان فيها إلى حمأة الرذيلة والعهر، وإلى مهاوي العفن وموطن الخبائث ،نعوذ بالله من شرور أنفسنا. فمعنى قوله تعالى «هو الذي خلقكم من نفس واحدة» أن الجسد الإنساني واحد هو مملكة الله تعالى، وأنه وجود موضوعي ليس للإنسان أن يناقشه أصلا، وإنما هو مسكن يسكنه الإنسان المؤمن راضيا به قانعا بما رزقه الله فيه، ويقوم فيه بواجب الاستخلاف كما قرر الله وقدّر.

حينئذ ينعم هذا المؤمن بالحياة الطيبة فلا تنغلق عليه الأرض، ولا يشعر بوطأة ولا بتعب ولا نصب. أما من يزعم القيومية على نفسه، ودليل ذلك في الظاهر الزعم بأنه صاحب جسده ومالكه والمتصرف فيه كما يحلو له، فإنه يتلاعب بملك الله المحجر على اللعب، وما يتلاعب في الحقيقة إلا بنفسه. وهو عندما يتوهم

---

(١) سورة آل عمران:٩٧

(٢) سورة القصص:٥٧ - ٥٨

الحرية ويدعي امتلاك جسده ما امتلكه وأنى له ذلك، وإنما تلاعب بروحه فحوّلها من مقامها إلى مقام آخر لا علم له به، وذلك معنى الشرك.

هذا المخلوق البائس الذي يزعم القيومية على نفسه لا يعتبر، وإلا فهل نحتاج إلى علم كبير لكي نعلم أن الجسد يتصرف بحسب مشيئة خالقه. فهو محييه وهو مميته، وهو مسقمه وشافيه، وهو مذكره ومؤنثه وهو مضحكه ومبكيه، وهو الذي مد ظله ولو شاء لجعله ساكنا، سبحانه ظهرت آياته في كل شيء.

فإذا صح أن النفس واحدة، علمنا حينئذ أنها لا تختلف بالأصالة من إنسان إلى آخر.

فالإنسان واحد بالأصل، وإنما يختلف الناس بحسب من يزاوجونه ويقارنونه، وهنا نصل إلى الآية الأخيرة من سورة التحريم لتزيدنا توضيحا: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»[1].

تبرز مريم ابنة عمران كأنموذج صاف واضح للنفس التي انغلقت على حقائقها الإلهية، ورفضت الإضافة إلى ما بنى ربها وأسس فيها، وأحصنت فرجها وصدّت عنه الطامعين الذين يعَدونها ويتوعدونها بالأكاذيب والأوهام والخرافات.

هاته النفس التقية النقية التي لم تدّع تألها في المملكة، بل حفظت السر وأرخت الستر، ولم تتلاعب بما حجّر الله وبنى، ولم ترض أن تهتك بكارة الستر والعفة والإحصان احتراما لحرمات الله، جازاها الله خير الجزاء بأن زوّجها خير زوج هو روح الله تعالى الذي ملأها خصبا ونورا وحياة تجسدت كلها في المسيح عيسى ابن مريم روح الله وكلمته وعبده.

---

(١) سورة التحريم:١٢

تولد الكلمة إذن، عندما تنكح الروح نفسا طاهرة، وتكون حينئذ معجزة وآية جديدة من آيات الله.

إن النفس التي يقارنها الروح يولّدها الكلمة ويخصبها بأسرار الله، ويملؤها بأعطياته وإكرامه.

أما النفس التي تبغي (البغيّ)، وتبرز علامة بغيها عندما تهتك الستر (البغاء)، فتدل بذلك على التحكم والتجاوز لما حد الله وحرّم ، ولذلك جاءت هذه الآيات البينات في سورة التحريم.هذه النفس حريّة بأن تحرم النجاة، وجديرة بأن تكون زوجٍ أول شيطان، وعندما يقارن الشيطان النفس فإنه لا يرعى فيها إلاًّ ولا ذمة، إنه حينئذ يفرض عليها عريا مطلقا تبرز فيه كل سوءاتها، ويدخل عليها كل الزناة والعتاة فيطمع فيها أتعس الخلق، فتصبح أنموذجا للشقاء وأمة للعبيد، وكانت قادرة على أن تكون في مناعة وحصانة.

5_ وشاهد ومشهود

يقول تعالى «بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره»[1]. هذه الآية المباركة من سورة القيامة تكشف عن الجدل الداخلي العميق بين الإنسان ونفسه. فالإنسان كما يظهر هو غير نفسه بل هو أكبر من نفسه أو فلنقل هو مبصر لنفسه شاهد عليها. فهو عين مبصرة شاهدة، والنفس مشهود له.

فهذه الآية تنبهنا إلى حقيقة الإنسان وجوهره وهويته، وهو أنه عين شاهدة للحق تعالى على النفس بما تنزع إليه وما تقارفه من الأهواء وما تستدعيه من المطالب وما تقارنه من الأرواح والأشباح...

إن الإنسان العميق عين شاهدة على النفس في حالة فجورها وتقواها. فالنفس تتقلب وتتوزع بين الأهواء والرغائب، وقد تقبل كلام الملائكة وقد تقبل كلام الشياطين، وقد تتقي أو تفجر، وقد تتذبذب بين هذا وذاك. أما الإنسان العميق، فهو عين واحدة شاهدة لا تتبدل ولا تتغير. ولذلك كان الإنسان أول وأصدق شاهد على نفسه بعد الله تعالى الذي خلق النفوس وبرأها.

قال ابن عباس رضي الله عنه «لكل إنسان نفسان : إحداهما نفس العقل الذي به يكون التمييز، والأخرى نفس الروح الذي يكون به الحياة»[2].

وقال ابن خالويه «النفس الروح، والنفس ما يكون به التمييز»[3].

وقال ابن بري «أما النفس الروح،والنفس ما يكون به التمييز، فشاهدهما قوله سبحانه: الله يتوفى الأنفس الأولى هي التي تزول

(١) سورة القيامة : ١٤-١٥

(٢) لسان العرب، المجلد السادس،مادة نفس، ص ٢٣٥

(٣) ن. م. ص ٢٣٤

بزوال الحياة، والنفس الثانية التي تزول بزوال العقل»[1].

يلتقي هؤلاء في أنهم يميزون بين نوعين من الأنفس، نفس هي مصدر التمييز هي على الأغلب ما نطلق عليه اسم العقل، وهي نفس لأنها من ضمن هوية وكيان الإنسان، حيث نلاحظ أن مستوى العقل يختلف باختلاف الناس، وقد لا يعني هذا اختلاف العقل في نفسه أي في حقيقته بل اختلافه ناشئ من حيث هو ضمن كلية نفس بعينها أي ضمن تركيب بشري خاص هو الإنسان المتعين.

أما النفس الثانية فهي الروح الذي به يكون الحياة أي حياة الإنسان، ولذلك التقى في جمعية غيب الإنسان النفس من حيث هي عاقل، والروح من حيث هو الحياة المعقولة. وذلك معنى أن يكون الإنسان كائنا واعيا بوجوده، أي بحياته، أي بنفسه. فالإنسان بنفسه يعقل نفسه؛ وإذا كان من أبرزنا أقوالهم من السابقين بدءا من ابن عباس قد ذهبوا إلى أن النفس نفسين، فلعلنا أن ندقق أكثر إذا قلنا إننا أمام مستويين للوجود في نفس واحدة، مستوى شاهد هو نفس العقل، ومستوى مشهود هو نفس الروح، وذلك معنى كلية ماهية الإنسان الصميمية النفسية الغيبية.

فالذات الداخلية الإنسانية العميقة دائرة واحدة شطرها الأول الروح وشطرها الثاني العقل. وشطر الحياة هو الظل المنفعل عن شطر العقل. فبقدر اكتمال العقل يكتمل نصيب الإنسان من الحياة، ويزداد حظه من ظهور الروح، وهي قوة الحياة.

وعلى قدر نقص العقل فيه يضمر ظهور الروح وتنحجب أنواره.

والأمر هنا بمثابة علاقة الشمس بالقمر للمتأمل لهما من الأرض. فالقمر بقدر أخذه من ضوء الشمس يكون نوره، وما ذلك إلا بحسب موقعه الفلكي ككل.

---

(١) لسان العرب، المجلد السادس،مادة نفس، ص ٢٣٥

ويمكن أن تفسر علاقة نفس العقل بنفس الروح، بالجسد وظله. فالظل ينتشر بحسب الجسد، وبحسب موقع هذا الجسد من النور. فلا يكون للظل انفصال عن الجسد وعن حقائقه وأوضاعه، فهو المنفعل والجسد الفاعل. يقول تعالى في سورة البروج «وشاهد ومشهود* قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»[1].

فلعله أن يكون من معاني قوله تعالى «وشاهد ومشهود»، تنبيه إلى وضع الإنسان وحقيقته الوجودية. فهو الكائن الشاهد المشهود في نفس الوقت. وقد يكون هذا بخلاف وضع كثير من الكائنات الأخرى.

إن أصحاب الأخدود هم بشر، وقد هداهم «عقلهم» الفاسد الضال إلى حرق المؤمنين ورميهم في نار الأخدود تنكيلا بهم وانتقاما منهم لإيمانهم بالله تعالى. قال الله فيهم «وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»[2].

فهنا في هذا الحادث الفظيع الذي تبرز فيه قمة العداوة بين أهل الكفر وأهل الإيمان، ورغم أن العقل قد انحجب انحجابا تاما بضلالاته وغيه وتسلطه، إلا أنه يبقى شاهدا على ما فعل، وذلك ليحاسبه الله تعالى بما فعل. فمهما لجّ الإنسان في الضلال، ومهما تداعى في مهاوي الجنون وادعاء اللاعقل وذلك بالتسلط الكامل على المعنى، وسلخ الوجود من موضوعية معناه، فإنه يبقى دائما كائنا محاسبا شاهدا على ما آل إليه وضعه من تدن وفساد.

إن الشاهد هو الفاعل، والمشهود هو المفعول «وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود».

فأصحاب الأخدود هم الذين يفعلون. والمؤمنون هنا هم تلك

(١) سورة البروج: ٣-٧

(٢) _ ن.م. :٧

الأنفس الصالحة التقية التي نكّلت بها الأنفس الكافرة (أصحاب الأخدود)، أيّما تنكيل تبعا لما أوحى إليها عقلها السقيم الذي لابد أن الشيطان قد استحوذ عليه وسكنه وأصبح له إلها. يتجلى من خلال هذا أن الناس بما هم أنفس واحدة، يتخذون من بعضهم بفعل التقدير الإلهي وضع الشاهد والمشهود. فكل واحد منهم شاهد على الآخر مشهود له. وهم على هذا المستوى الخارجي الموضوعي يكشفون عن حقيقة الوضع الداخلي للنفس الإنسانية بكليتها، أي بما هي عقل (شاهد)، وروح (مشهود).

*****

إن طبيعة العلاقة الداخلية بين الشاهد (العقل)، والروح (المشهود) تحدد إلى حد بعيد وبصدق نادر طبيعة العلاقة الخارجية بين الإنسان وغيره من البشر.

أ _ استكبار النفس

لكي تتوضح لنا هذه المعاني بصفة أجلى سنحاول تمثلها ضمن الرؤية القرآنية للإنسان، وتخصيصا ضمن منطق ومنظور عقيدة الاستخلاف.

قال الله تعالى « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ *قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ*وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ *فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»[1].

توضح هذه الآيات البينات من سورة البقرة عقيدة الاستخلاف ومعانيها. فالله تعالى قال للملائكة «إني جاعل في الأرض خليفة»،

(١) _ سورة البقرة: ٣٠-٣٩

فهناك الخليفة من ناحية وهو آدم كما كشفت عنه الآيات اللاحقة، وهناك محل الاستخلاف وهو الأرض. وواضح أن الخليفة هو من الرفعة والتمكين والحظوة لدى الله بحيث علمه الأسماء كلها. وفي قوله تعالى «وعلّم آدم الأسماء كلها...» إشارة إلى آدم العاقل المعلَّم أي صاحب العلم. وموئل العلم ومحله في الإنسان، العقل. فالعقل من الإنسان هو الخليفة، والأرض موقع الخلافة هي نفسه وهي في الاعتبار جسده الذي سيظهر فيه ويمارس فيه تدبيره، وإذا كان ابن عباس رضي الله عنه وبعض اللغويين الذين أسلفنا ذكرهم قالوا إن النفس بمعنى الروح هي المتمم للنفس بمعنى العقل، فهم يقصدون بالروح هنا مجلى حياة الإنسان.

والمعلوم أن بروز الحياة في الإنسان يكون من خلال الجسد. وهذه الخلافة لها بعد ذاتي فردي حيث توحّد ثنائية الخليفة – الأرض في جمعية ذات الإنسان. فالإنسان أصلا شاهد ومشهود، أي عقل شاهد (خليفة) وأرض مشهودة (نفس : محل استخلاف).

وكمال الإنسان بكمال سكون معناه ولا يكون إلا في الجنة: «اسكن أنت وزوجك الجنة». فسكون الإنسان الحقيقي والأساسي هو التقاء عقله بنفسه التقاء توحيديا تنشأ عنه نفس واحدة كاملة تامة هي البدر في كمال نوره وجمال منظره، تمجد الله منظره مُظهره وصانعه. حينئذ تندمج الزوجية في الفردية بفعل التوحيد الخالص، ولا تكون زوجية إلا من حيث الاعتبار ولزوم المقام وإظهارا للقوة الرحمانية حيث لا يفلت من التركيب مخلوق ولتثبت الوحدة المطلقة لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. فلما سكن آدم وزوجه الجنة، ثبتت لهما الراحة التامة والسكينة المطلقة، وكانت حياتهما رغدا خالصا. وضمن هذا الاندماج الأول لم يفقد الاستخلاف حقائقه ولا معانيه.

فالله تعالى «علّم آدم الأسماء كلها...»؛ والتعليم على ما يظهر كان

لآدم دون زوجه أي للوجه العاقل من الإنسان: «قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم...» هنا نلاحظ أن العلم كان حظ آدم من ربه، فدل بذلك على أن آدم هو موئل العلم، أي أنه العقل الخليفة. ثم جاءت الرسالة لآدم ومن خلاله لزوجه: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»[1].

فآدم هو المخاطب المباشر ومن خلاله زوجه. والملاحظ أن العقل هنا بما هو محل المعرفة والمستخلف عليها، سمي «آدم». فدل بذلك على ضرورة ظهوره وهيمنته على محل استخلافه وهو زوجه أي نفسه التي نسبت إليه فعُرِّفت به «زوجه»، ولم تعرف بذاتها. وفي ذلك حكمة قرآنية بالغة تكشف عن سر قوله تعالى «الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعضوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا»[2].

ويقول تعالى في سورة البقرة «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمنّ بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم»[3].

فالقرآن الكريم صريح في تقديم الرجال على النساء درجة، وصريح في أن الله فضل بعضهم على بعض. وهذا التفضيل وهذه الدرجة

---

(١) سورة البقرة: ٣٥

(٢) _ سورة النساء: ٣٤

(٣) سورة البقرة: ٢٢٨

قد يكون والله أعلم بسبب الدور الاستخلافي لآدم من كونه محلا للعقل وممثلا له. والعقل الأعظم الكلي المطلق القدرة كما نعلم هو الله تعالى، فجاء آدم على صورة ربه سبحانه وتعالى قائما بالخلافة في الأرض التي هي زوجه، كما قام ربه تعالى بعقل العالم وتنظيمه وإحكام توجيهه. إن قمة تنظيم الله تعالى للعالم برزت في خضوع هذا العالم لله تعالى خضوعا مطلقا بالطاعة قبل الإكراه «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون»[1].

وقوله تعالى «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال»[2].

وفي سورة فصلت جاء قوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالت أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم»[3].

لمّا تكلم العالم قال «أتيت طائعا»، وذلك خضوعا للحق تعالى، فإن آدم الذي جعله الله تعالى على صورته لا بد له أن يعي هذا الدرس جيدا في علاقته بنفسه، أي بزوجه. إن هذه النفس لا بد أن تأتي طوعا أو كرها؛ وإتيانها طوعا بالاعتراف والتسبيح هو أكمل الإتيان وأفضله لآدم ولها. حيث برز في قول السماء والأرض « أتينا طائعين»، عزة الله وهيمنته وجبروته وقوته وجاذبيته المطلقة لمخلوقاته.

وبرز أيضا حسن اعتراف المخلوق بفضل خالقه وبهيمنته؛ فنشأ عن ذلك الفضل والإنعام ومزيد العطاء حيث مد الله السماء فجعلها

(١) سورة آل عمران: ٨٣

(٢) سورة الرعد:١٥

(٣) سورة فصلت : ١١ _ ١٢

سبعا، وأوحى في كل سماء أمرها، وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظا .

إن الاعتراف بالقضاء الذي لا رادّ له يؤدي إلى إحسان القدر. فقد فازت السماء والأرض لما أتيا طائعين. وكذلك الإنسان إذا اعترف بألوهية ربه وعبوديته التامة له، وجاء ربه طائعا حسّن الله قدره وزين حياته ونوّر بيته الأعلى :(السماء)، والأدنى: (السماء الدنيا). إن القرآن الكريم أخفى اسم الزوجة لحكمة عظيمة [1]وهي بيان المواقع والاعتبارات والدرجات. فالزوجة وهي النفس، ليست متميزة بذاتها حتى يكون لها الاسم العلم، وإنما هي بحسب الزوج تكون، وإليه تنسب. وكذا النفس، بحسب العقل تكون. فإن كان العقل مؤمنا عالما بربه، مستمدا من نوره تعالى، أفاض على النفس من نوره مثلما تفيض الشمس على الأرض.

وإن كان خربا ويكون ذلك باستمداد العلم الفاسد (الجهل) من الشيطان (السماع الابليسي اللعين)، خربت النفس بخرابه، وأظلمت بتوليه، وساءت مصيرا.

فالعقل سر النفس، والعلم سر العقل، والله سر العلم. وهذا غاية الإحكام في التنظيم الإلهي للوجود وللكون ولهذه التجربة الإنسانية الشريفة بإذن الله. إن منتهى سعادة النفس أن تؤوب إلى عقل مؤمن معلّم «وعلم آدم الأسماء كلها»، فتسكن إليه وتستنير بنوره وتندمج فيه وذلك على التحديد معنى رحلة الإنسان من الأرض إلى السماء، وذلك معنى الخلاص، وذلك معنى النجاة.

فالإنسان بإناثه وذكوره نفس واحدة أسكنت الأرض لا لتبقى فيها وتدعي القيومية والاستقلال، بل لتؤوب إلى ربها ولترجع إلى النور الذي منه جاءت وإليه تحنّ لو علمت. فالأرض هي الظلمة والسماء هي النور، والنفس هي الليل، والعقل هو النهار، والإنسان هو العبد

(١) _ لم يذكر في القرآن الكريم اسم زوجة آدم عليه وعليها السلام.

والله هو الرب. فعقلَ الله الإنسان وشرّفه بأن جعل سعيه ورجعاه إليه طوعا واختيارا، فكرّمه بذلك على كثير ممن خلق. يقول تعالى للنفس «يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي»[1].

هذه النفس المطمئنة التي صنعت عند الفجر بين الظلمة والنور، والتي تتجاوز بما حباها الله الإيمان واليقين ليل الطبيعة الموحش إلى فجر الوجود من جديد، هي القادرة وحدها على العبور وعلى الرجعى. فإن سألت: وبم رجعت ؟ قلنا بسر الاطمئنان؛ فإن قلت: ومن أين جاءها الاطمئنان؟ ذكرنا قوله تعالى «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب»[2].

فطمأنينة النفس (القلب)، بذكر الله تعالى. وبذكره تعالى تنقلب النفس انقلابها الحقيقي إلى نفس مطمئنة أو إن شئت الوجه الأصح قلت بذكر الله تثبت النفس وتأمن التقلّب، وتركن إلى موقع القلب من هذه المملكة الإنسانية المكرمة فلا تفارقه، فتُجبى إليها فيه ثمرات كل شيء؛ فهو الحرم الآمن، وهو البيت العتيق وهو موئل السرّ وسفينة النجاة.

فما اطمأنت النفس بنفسها، وما سكن القلب وأمن التقلب بقواه الذاتية، بل بقوة الله وبنور ذكر الله تعالى.

فعلمنا أن سر النفس في العقل لا شك في ذلك، وأن النفس بحسب العقل تكون، وأن خصب الأنثى لا يكون إلا من الذّكَر، وأن بيت المرأة لا فائدة فيه إذا لم يعمّره الرجل، وأن حنين الأنثى إلى الذّكَر كما قال محيي الدين بن عربي، هو حنين الفرع إلى أصله.

فإن ترفعت الأنثى عن مقامها هذا وطلبت كمال الدرجة في نفس نفسها، فإنها حينئذ تدعي أنها لا تحتاج لكي تلد إلى مصدر للخصب.

(١) سورة الفجر : ٢٧ _ ٣٠

(٢) سورة الرعد:٢٨

فمثلها مثل الأرض إذا ادعت أنها بدون ماء تخضّر وتزهر، وهذا هو الوهم، وهو الادعاء وهي الأمنية الزائفة والرغبة المجنونة. يقول تعالى ناهيا عن طلب المحال في هذه العلاقة بين النساء والرجال: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما * ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما»[1].

ينهي الله تعالى الإنسان عن الكبْر والتأله الزائف الذي يأتيه من قبل الشيطان. فالله تعالى قد أحكم البناء لما آب بالنفس إلى العقل وأنشأ من اندماجهما نفسا مطمئنة قادرة على الرجعى إلى ربها ليكون موئلها الدخول في عباد الله الصالحين ودخول جنة الله تعالى. إن عمل الشيطان حينئذ تدمير التناسب والتناغم وقطع الطريق بكل السبل على التوحد المطلوب بين النفس والعقل.

إن الشيطان يسعى بكل قواه لإلقاء بذور الفتنة والفساد وإقناع النفس بالتأله وأنها أعلى من العقل، وأنها قادرة على الاستقلال والتدبير، بل إنها أحرى بأن تتولى نفسها؛ هذا إن لم يقنعها بأن تكون هي مصدر جاذبية للعقل بالمعنى الاستكباري للكلمة، فيدعوها إلى أن تستصنع من نفسها «القوة» «تلو القوة»، ويوهمها بأنها على ذلك قديرة، فماذا تفعل هذه النفس؟ إنها تقوم وبفعل هذا الإغواء اللعين، إلى نفسها (جسدها)، فتظهر فتنه، فتنفخ في صدرها، وتكشف عن ما خفي، وتزيد بالطلاء ما بهت بيانا، وما خفي ظهورا، ثم تلبس لا لكي تستتر بل لكي تتعرى؛ يبرز ذلك في اتخاذها لتلك الثياب الفاضحة.

فإذا ما ظنّت أنها استوت على سوقها، خرجت يملأ الشيطان أعطافها حرارة، ويهز كيانها هزا.فهذا المثل الذي نراه يوميا في

(١) سورة النساء: ٣١ _ ٣٢.

جاهلات النساء وفاجرات البشر ولسن بالقليلات، هو مثل النفس في استعلائها على العقل وهو أصلا مثل الإنسان في استعلائه على ربه، يدعي بذلك القيومية على نفسه، ويدعي المقدرة على التحكم في ذاته وكيانه، وهو في الحقيقة أخسأ عبد لأخسأ شيطان، وفرجة لكل متفرج، وعبرة لمن يعتبر من عباد الله الصالحين .

ب _ استكبار العقل

إذا كان استكبار النفس يكون بامتناعها عن الاستمداد من العقل، فإن استكبار العقل يكون بالامتناع عن الاستمداد من الحق.

إن العقل وهو محلّ العلم في الإنسان، يستنير بنور الله، لأنه لا علم له في ذاته، وإنما علمه من قِبَل الله تعالى «اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها حيث شئتما ولَا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»[1].

فهذا العلم الإلهي الصحيح كفيل بحفظ آدم وبحمايته، وضامن له مكانته في الجنة وحياة رغدة لا نصب فيها ولا تعب، فمن أين جاءه الشيطان؟

لقد جاءه من باب العلم فشككه فيه، وأغراه بقبول «علم» آخر سيتضح بعد قليل أنه الجهل عينه: «فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين* وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين* فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين* قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»[2].

في هذه الآيات البينات من سورة الأعراف برز خطاب ابليس كخطاب موجه لآدم وزوجه، وفي سورة طه يتحدد الخطاب الابليسي ليتوجه إلى آدم بالذات:»ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذه عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من

(١) سورة البقرة:٣٥

(٢) سورة الأعراف:٢٠ _ ٢٣

الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى»[1].

واضح أن الله قد أعذر إلى آدم، وبيّن له طبيعة ما أنعم عليه به، ونبهه إلى عدوه صراحة، ونبهه إلى ما سيحصل له جراء اتباع هذا العدو.

وهذا الكلام الإلهي لآدم كما ترى، هو عين خطاب الله تعالى للناس في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم إشارة إلى نعم الله، وتنبيه إلى مخاطر الشيطان وضلالاته وما يؤول إليه الإنسان من الشقاء إذا ما اتبعه. فهل معنى ذلك أن الإنسان (آدم) ما خرج من الجنة، وأن بني آدم اليوم في الجنة وهم لا يعلمون؟ قد يكون هذا الفهم صحيحا إذا فهمنا الهبوط بمعنى الغفلة عن حقيقة نعم الله، وعن نور الله المنزّل ونسيان نعم الله وآلائه.

إن الحياة حتى هذه الحياة الأرضية التي يسبها أغلب البشر، هي أجمل حياة وأروعها، وآلاء الله فيها بارزة ظاهرة، ونعمه واضحة جلية، أمّا متعها وخيراتها فلا تحصى ولا تعد.

فنغص البشر بعضهم على بعض هذه الحياة، وأفسدوها بما اتبعوا الشيطان وحكموه فيهم، وأدخلوه بينهم. فحق حينئذ أن ترفع هذه الحياة الدنيا، وأن يحاسب الناس، وأن يفصل الله بين المؤمنين والكافرين، لأنه لا صلاح لحياة المؤمنين في ظل الكافرين، ولا فائدة من بقاء الكافرين ما داموا إخوان الشياطين.

إذن فقد داخَلَ الشيطان آدم من باب العلم، فعلّمه كلاما آخر سمعه آدم فلم يرفضه، بل وجده كلاما جميلا براقا «هل أدلك

(١) _ سورة طه ١١٥-١٢٢

على شجرة الخلد وملك لا يبلى»؛ جملة مختصرة هي سر فساد العلم وانقلابه جهلا، ولو نقّب حكماء الأرض في كل مكان وفي كل كتاب فلن يعثروا على أروع من هذه الجملة في بيان مرض العقل. وبقبول آدم للتعليم الشيطاني الفاسد، اندثرت حقيقته وغاب عقله وظهر ما أضافه ابليس (السوأة = وهي محل الشهوة).

فالعقل كان متمكنا بالعلم الإلهي، فعقل السوأة عن الظهور، وحجبها عن الانكشاف وذلك معنى العقل. فالعاقل هو من غطّى سوأته وسترها رغم وجودها، والدليل قطعه لشهوته.

فالشهوة تظهر من السوأة، وهي دليل على أن السوأة بابها مفتوح. فإذا كان الإنسان يتشهى ولا يمتنع عن شهوة، فذلك برهان قاطع على أن سوأته بادية وعقله غائب رغم كل الإدعاءات. فدليل ثبوت العقل حجب السوأة، ودليل حجب السوأة وسترها حجب الشهوة. فإذا انحجبت الشهوة بقوة العقل، آب الإنسان إلى ربه، لأنه حينئذ يرى ربه، ويرى الحقيقة لا تحتاج إلى عناء.

أما إذا ظهرت الشهوة، فإنه ينفتح عليه باب العالم ولا يقدر على تخليص نفسه ولو بذل ما بذل.

إن المرأة تكون في عصمة زوجها منيعة على الخلق، فإذا بغت وشاع فجورها وتحقق، داهمها الخلق فلم تمتنع على أي منهم سواء بالرضا أو بالغصب، وفتحت على نفسها عندئذ بابا لا يسده إلا الله الواحد الأحد، هذا إذا آبت وتابت، أما إن لم تتب، فهي البيت الخرب الذي لا يستعصي على أي شيء حتى على كلب ضال.

فثبت حينئذ أن قوة الرجل تنبع من تحكمه في الشهوات وهي الاهـواء، يقول تعالى «فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه

ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى»[1].

في هذه الآيات البينات من سورة النازعات يربط الله تعالى بين الخوف من مقامه أي تقوى الله، وبين نهي النفس عن الهوى كدليل على هذه التقوى ومصدر قوة وزيادة فيها. فمن أراد أن يكرمه الله، فليزدد في تقوى الله، ومن أراد أن يزداد في تقوى الله فليزدد في نهي النفس عن الهوى. فكلما ازداد في نهي النفس عن الهوى ازداد عقلا، وكلما ازداد عقلا ازداد علما. فهذا هو الدين كما وضحه رسل الله وأنبياؤه، وهو الصراط المستقيم الذي هدى الله تعالى إليه الخلق، وهو ثابت في القرآن، موجود في كتب الأوائل من أمم الأرض، معلوم للحكماء الإلهيين، شائع بين عباد الله المستنيرين، دين الله تعالى المتاح تطبيقه لكل البشر، وهديه الذي يسره للأميين الذين ما كانوا يتلون من قبله من كتاب.

يتجه العقل الإنساني بفطرته إلى استصناع القوة، غريزة فيه ركّبها الله تعالى. وقوته بقدر علمه، وبحسب نوعية هذا العلم. فإن عَلم علْمَ الحق كان أقوى العقول، واستطاع بعلمه أن يواري سوأتَه، وَأن يمتنع عن الشهوات، فحينئذ يتحكم في نفسه ويمنعها عن الطامعين. وإن علم علم الشيطان (الجهل) اتجه في الطريق المعاكس فكشف سوأته، وفتح عين نفسه على الشهوات، فلم تمتنع على طالب وضعفت أمام كل مرغوب، واستكانت لكل الخلق طوعا وكرها، فأصبحت بذلك أسوأ النفوس وأذل الخلق بعد أن حسب صاحبها أنه يحسن صنعا.

جاء في سورة الكهف «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم

(١) سورة النازعات : ٣٤-٤١

لهم يوم القيامة وزنا»[1].

كيف لا يحسب الكافر المحجوب أنه يحسن صنعا وهو مهووس بكلام ابليس «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى»؛ ولذلك فلابد أن تظهر على أولئك الذين صدق عليهم ابليس ظنه معاني التربية الابليسية: السعي إلى الخلود الأرضي، والمادية في النزاعات والملكيات.

إن أتباع الشيطان يبنون فيقلدون الفراعنة وما خلد الفراعنة، وتلك جثثهم المحنطة تكتشف كل يوم لتدلّ على عبث هذا الخلود الأرضي: خلود الأموات. لم يبق منهم إلا أجساد أو بالأحرى أشباح أجساد ميتة تقاوم الانقراض، وتوضع في المتاحف لكي يتأملها الناظرون.

لا شك عندي أن هؤلاء الفراعنة العتاة الجبارون لو علموا بما يؤول إليه عملهم المتمثل في سعيهم إلى الخلود بكل وسيلة ومن غير بابه، ما فعلوا ذلك. ولا أتصور والله أعلم، أن أولئك الفراعنة راضون عما آل إليه حالهم من كونهم أصبحوا فرجة لكل متفرج وعبرة لكل معتبر.

فما نفعتهم صيانتهم لأجسادهم إلا حفظها كملكية لغيرهم. فازدادوا عبودية وذلا وكانوا يتصورون أنهم يتميزون على الخلق باتخاذ الأهرامات وتكلف التحنيط واتخاذ الطقوس عند الممات. لا ريب أن مصريا فلاحا بسيطا لم يسمع بالفراعنة ولم يسمعوا به، عاش حياته عاملا ناصبا مؤمنا بربه، ثم مات فاختلط جسده بتراب الأرض في تواضع لربه الذي خلقه من أديم الأرض، لهو أكثر سعادة وأكثر راحة من أولئك الفراعنة الذين أصبحوا ينقب عنهم مثلما ينقب عن الذهب والفضة فساووا الحجارة والمعادن.

أما شجرة الخلد التي دلّ ابليس عليها آدم فهي سوأته. ذلك ما بدا

(١) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٥

منه لما اتبع ابليس. وأما المُلك الذي لا يبلى، فهو هذه الأرض. لم ينشأ عن اتباع آدم لابليس إلا هذا حيث «بدت لهما سوءاتهما» وكانت النتيجة «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين».

ج _ استخلاف العقل على النفس

إن النفس بمعنى العقل، والنفس بمعنى الروح الذي به تحصل الحياة، يشكلان في الحقيقة نفسا واحدة هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم الذات. فالذات الإنسانية تقوم هويتها على جانبين جانب معرفي هو البرنامج الذي يوجهها ويهديها سبلها. وإذا كان هذا البرنامج يختلف في طبيعته، فإنه في كل الحالات هو العقل بالمعنى اللغوي الأصلي للكلمة، أي القوة التي تعقل. الجانب الثاني من الذات وهو الجانب الوجودي (الروح =الحياة).

فالإنسان كائن حي يوجهه برنامج. وهو من حيث هو حي يمتلك خصائص الحياة من نمو وحركة وتطور، وقد انتظمت حياته ضمن برنامج عجيب أبدع الله تعالى كل تفصيلاته وحقائقه بدءا بالأشرطة الوراثية اللامرئية التي تحكم التكوين البيولوجي للكائن، وانتهاء بالأجهزة الجبارة القائمة على تدبير الحياة العضوية والفكرية للشخص. غير أن الإنسان مُكن ولعله من هنا تميز عن عديد الكائنات الحية الأخرى، من حق اتخاذ برنامج يشرف به على حياته ويوجهها.

لو بسّطنا أكثر لقلنا إن جانب الحياة في الإنسان يختزله هذا الجسد الحي بكل أجهزته الدقيقة والجبارة وبكل أسراره العجيبة التي تحكم عملية النمو والتطور. فهذا الجانب الجسدي من وجود الإنسان والذي به يدخل ضمن عالم الكائنات الحية بكل الاشتراطات التي تحيا ضمنها، هو بعض نفس الإنسان، أو هو وجود الإنسان الذي به يشارك في الحياة وينتمي إليها. ثم إن هذا الجانب الوجودي

في الإنسان قد شفع بآلة أخرى دورها توجيه حياة الإنسان في عديد جوانبها، وهذه الآلة هي آلة المعرفة أو العقل. وهي جزء أساسي من ماهية الإنسان. فالعقل هو الآلة العارفة التي تؤسس وعي الإنسان بحياته وتجعله وعيا متطورا راقيا لا وعيا بدائيا. فعبر العقل يكتشف الإنسان حقائق ذاته، ويعي أبعاد وجوده، ويبحث عن معنى لهذا الوجود.

وهو يستخلص نتائج بحسب ما يستفيده من حقائق وما يتعرض له من تجارب. وآلة العقل هي برنامج الوعي الإنساني الذي يستمد كما قلنا من عديد المصادر، والذي يتنوع إلى وعي بالذات ووعي بالآخر.

ولا ريب أن هذا الوعي يختلف باختلاف مراتب حياة الإنسان، فوعي الصغير ليس وعي الكبير، ثم وهذا أساسي، باختلاف مصادر المعارف التي يستمد منها الإنسان الحقائق. إن الوعي في حقيقته نظام هندسي عجيب لمجموعة المعلومات والخبرات التي يحملها الإنسان. ولا ريب أن الآلة مهندسة الوعي هي آلة جد متطورة وجد مذهلة، بحيث لا نعلم عنها إلا القليل، بل إننا لا نرى في الحقيقة إلا كيفيات صنعها وعجائب هندستها وإخضاعها وتنظيمها للمعلومة.

فنحن نرى مثلا آثار حدث مأساوي على شخصية الإنسان، ونتبين الاضطرابات التي تحدث له، ولكننا لا نعلم إلا القليل عن نوعية التبادل بين الإنسان والمعلومات، وعن أسرار التمثل الإنساني للأحداث. وإذا كانت معلوماتنا اليوم تتطور عبر علوم الإنسان وبعض العلوم الصحيحة بشكل رائع لكي تكشف عن معاني أعمق لكيفية التمثل والاجتياف الإنساني للحقائق والأحـداث، ولكي توضح ما خفي في هذا الجهاز الإنساني، إلا أن بناء نظرية كلية يبقى حلما بعيدا.

المهم أن الإنسان يحيا ببرنامج، وهذا البرنامج الذي قوامه معلومات وقناعات ومعارف، هو الذي يسمح للإنسان بالتعامل ويوجه حياته هذه الوجهة أو تلك.

وهذا البرنامج منتظم ضمن آلة لها ثوابتها (كيفيات تنظيم المعلومات وتمثلها وكيفيات التعامل...)

كما لها جوانب حية دينامية متغيرة، ونظام التغير والتحول في برنامج هذه الآلة هو أيضا مبرمج

ومنظم ومحكم. وفي سبيل توضيح حقيقة آلة العقل يمكن أن نستنجد بمعلوماتنا حول جهاز الكمبيوتر فهو يحتوي على ذاكرتين ذاكرة ميتة mémoire morte تحوي المعلومات الأساسية التي لا تتبدل والتي بواسطتها تتم حركة الجهاز واستخدام أجزائه وآلاته. ويحتوي من جانب آخر على ذاكرة حية mémoire vivante وهذه الذاكرة الحية تقبل الزيادة والتنقيص والتغيير والتبديل، ويمكن أن تبرمج فيها برامج جديدة عوض البرامج الأولى .. الخ

فالعقل الإنساني هو مثل هذا الجهاز الذي لا ريب أنه جاء شديد الشبه به حتى سمي «العقل الالكتروني» يحتوي على برنامج ثابت ليس هو من صنع الإنسان بل من صنع الله تعالى الذي نظم هذه الآلة الإنسانية بأجمعها. ويحتوي على برنامج متغير هو البرنامج الذي يضعه الإنسان نفسه ويضيف إليه وينقص بحسب معلوماته ومصادره وخبراته وقناعاته وخاصة بحسب إلهه الذي يعبده.

ضمن هذا البرنامج الثاني الذي هو من اختيار الإنسان وتحت تصرفه، يتناول الوعي نفسه بالنقد والتغيير والإضافة والتبديل بحسب المواضعات والظروف والحاجات والاختيارات: إنه العقل الخليفة على المملكة الإنسانية بكل قواها وطاقاتها وإمكاناتها. يجد هذا العقل قوة الحياة حاضرة، أو قل يجد نفسه ضمن عالم حي هو عالمه الخاص. وهو محدود بحدود جسده أولا، ثم ضمن

عالم موضوعي رحب كبير.

ويبدأ عمله في الوعي بحقائق نفسه (حياته)، والوعي بحقائق العالم الموضوعي الذي يحيا ضمنه. وإذا قلنا الوعي بنفسه والوعي بالعالم الموضوعي، فإننا أمام عملية تفاعل شديدة التعقيد تقوم بها الذات الحية مع كيانها ومع العالم.

ما هي هذه الذات الحية أساسا، وما هو هذا الوعي الحي والحيوي والمتبدل أصلا؟ هذه حقائق غيبية محجوبة لا طاقة للإنسان بأن يعلمها على وجه التحقيق واليقين.

نعلم من القرآن الكريم أن هذا الوعي الأساسي الذي يشير إليه الإنسان بقوله «أنا» هو القلب أي هو قلب المملكة الإنسانية. وهذا القلب يتقلب ما بين العمى والمعرفة.

قال تعالى «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»[1].

هذه الآية الكريمة من سورة الحج تكشف على أن آلة العقل هي هذا القلب الذي في الصدر؛ فهل جعل القلب موطنا للعقل لأنه جاء بالضبط في قلب المملكة الإنسانية أي في وسطها وصدرها وموضع الإشراف منها؟ وهل المقصود هذه القلوب المصنوعة من لحم ودم أم هي آلة أخرى لا ترى؟.

لنقل إنها عين القلب القابلة لأن ترى كما هي قابلة لأن تعمى. فالإنسان في عملية الوعي بمثابة العين، والقلب منه بمثابة إنسان العين من العين، أي المرآة التي تنعكس عليها صور الحقائق والأشياء فتراها وتعقلها. والأمر على كل حال غيب من غيب الله، منه ما سمحالرحمن بظهوره وانكشافه للعلماء، ومنه ما غيّبه

(١) سورة الحج : ٤٦

وحجّره فلا نأخذه إلا على سبيل الإجمال[1].

إن القلب هو آلة العقل، والإنسان مدعو إلى أن يستخدم هذه الآلة لممارسة التعقل «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها». إن القلب هنا بمثابة آلة التصوير الفوتوغرافي التي يحملها السائح في الأرض معه فيصور من المشاهد ما يشاء بحسب اختياره. فهذه المشاهد التي صورها هي الحقائق التي عقلها، وهي زبدة الرحلة، وهي صورة حقيقية دالة على نوعية ذوقه وحقيقة اختياره، وعلى نوعية رغباته وحقيقة تطلعاته. فلو أخذنا سائحين حملتهما الأقدار إلى مكان واحد، وفي يد كل واحد منهما آلة تصوير، ثم نظرنا بعد ذلك إلى ما صوراه وسجلاه من أشرطة مصورة، لوجدنا اختلافا كبيرا في الصور.

فقد يكون أحدهما مثلا اهتم بالمباني والعمران والمتاحف والآثـار. وقد يكون الآخر أعرض عن كل هذا وصوّر البشر في حياتهم وأسواقهم وعاداتهم وتقاليدهم. وقد يكون أحدهم حرص أن لا تظهر صورة إلا وهو فيها أو على الأقل أن تُرى صورته في أغلب أجزاء الشريط. وقد يكون الآخر لم يكترث لهذا الأمر البتة. والخلاصة، أن ذينك الشريطين المصورين بحرية يدل كل واحد منهما على ذوق صاحبه وعلى تطلعاته وعلى فهمه للمعنى وتمثله لما هو أساسي دالّ ولما هو عرضي...الخ.

إن الصور تكشف في النهاية عن تصور للسائح لمعنى الرحلة وفائدتها. فكذلك هذا الإنسان، هو السائح الذي بعث إلى الأرض بآلة تصوير هي قلبه القادر على أن يأخذ من الصور ما يشاء، وعلى

---

(١) يقول المولى سبحانه وتعالى :» وسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». سورة الإسراء:٨٥ . فنحن نؤمن بوجود الروح وأنه غيب من غيب الله تعالى، وإذ نقارب في تحليل مسألة الوعي فلأنه تجل ظاهري من تجليات هذا الروح الشريف ودليل من أدلة وجوده. ولكننا لا نجازف بتجاوز حدود النظر المشروع بإذن الله تعالى.

أن يصور من الأرض كل مشاهدها. وفي لحظة قدرية ترسو السفينة فوق الأرض، وينزل السائح ويبدأ في رؤية المشاهد. فهو حينئذ مدعو إلى أن يصور بحرية ما يشاء، وكل ما يصوره هذا الإنسان بقلبه يقع حفظه في أشرطة دقيقة، ويوم الحساب تستخرج آلة القلب (العقل) في الإنسان، ويبدأ الحق تعالى في إظهار صورها. فلا يحاسب الإنسان إلا بما عمل، ولا يُدان إلا بما رأى وسمع، ولا يكرم إلا بما اختار ووعى. فهذا هو الحساب العدل، تقدس الله العدل الحق، وتمجد قرآنه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. إن القلب من الإنسان هو الخليفة وبقية الكيان بالنسبة إلى القلب بمثابة الأرض التي هو مستخلف فيها.

ومعلوم أن الأرض مسيّرة بقوانين موضوعية قدّرها البارئ جل وعلا الذي يقول «قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»[1].

فالمقدار محدود، والنظام موجود، وباب الخل مسدود، وللإنسان حينئذ أن يسأل قُوتَه ضمن هذا المقدار العجيب الذي قدر في أربعة أيام سواء للسائلين.

فالإنسان الخليفة هو العقل، وهو قلب الذات. وما حياة الذات إلا بوجود العقل ومن أجله. وهذا العقل طالبه ربه أن يتدرج في مراقي الكمال حتى يبلغ أعلى درجات السمو والرفعة، ولذلك أنزله إلى الأرض (أرض البدن)، ليكون منها منطلق الصعود والترقي. وأقصى درجات الترقي توحيد الله الواحد الأحد، والاتصال به تعالى اتصال النور والرضا والاطمئنان، وطلب توليه تعالى للذات.

---

(١) سورة فصلت:٩-١١

فالعقل(قلب الذات) الذي يسير في الأرض فيعقل ويسمع ويبصر ويرى الآيات الباهرات التي تدلّ كلها على عظمة الله تعالى ومقدرته الكلية وعلى تنظيمه المحكم وهدايته كل شيء إلى غايته وإلى سبيله: الله هادي الطيور إلى أوكارها، وهادي الحيتان في ظلمات البحار إلى أقواتها، وهادي السلحفاة الوليدة على الشاطئ إلى الاتجاه حالا وبدون إبطاء إلى الماء، وهادي الحوين المنوي الذكري إلى البويضة، وهادي البويضة التي لا ترى بالعين إلى فتح بابها لحوين منوي واحد ثم إلى الانغلاق، وهادي البويضة الملقحة إلى الرحم، وهادي الجسد إلى قبول هذا «الكيان الغريب»، أعني الحوين المنوي، وعدم تحطيمه رغم أنه هداه إلى أن يرفض كل غريب.

الله هادي الالكترونات إلى مداراتها حول الذرات، وهادي الأجرام إلى أفلاكها ، الله هادي الموج إلى شواطئه وهادي الصياد على قارب صغير في عباب اليم، الله الهادي بالرحمة وبالجبروت بالطوع وبالإكراه، الله الواحد الأحد الفرد الصمد له الأسماء الحسنى جل وعلا. فإذا ما فتح الله على العبد، فرأى آيات الله بعين النور وعين البصيرة وعين الحكمة، وتأمل في خلق الله وأبصر وأرجع البصر، فإنه حينئذ سيستشعر من آيات الله ومن عظمته وعزته ما يجعله يؤوب إليه ويستهديه ويطلب أن يتولاه هو أيضا بالهداية إلى المطلوب من وجوده والمقصود من كونه، ويتضرع إليه أن لا يحرمه الحج إلى معبوده.

فإذا تضرع ودعا فأخلص، فإن الله البرّالرحمن الرحيم يتولاه فيمن وفيما تولى، فيضمه إلى خلقه المهتدين. فيكون في رد العبد نفسه إلى ربه عين العقل وعين الاهتداء وعين الاستنارة.

إن من يجد الفرصة متاحة لكي يحفظ وجوده بشكل تام، ولكي يضمن الحياة بكيفية كاملة، ولكي يضمن السعادة بدون حد، ولكي

يحيا مطمئنا لا يعرف الخوف إليه سبيلا ثم لا يغتنمها هو المجنون المطلق الجنون.

وهذه الفرصة التي لا تتكرر هي فرصة العبد وهو فوق الأرض في التضرع إلى ربه ودعائه تعالى أن يتولاه وإعلان الخضوع لربه تعالى، وعزل نفسه عن التدبير، وإلغاء قيوميته على ذاته، ومن وراء هذا القرار إلغاء ولاية ابليس وولاية الطاغوت على النفس.

هذه الفرصة تتاح فوق الأرض وضمن تجربة الإنسان في كدحه إلى ربه كدحا إذ هو ملاقيه. فطريق العقل هو طريق الحج إلى الله تعالى، فالله تعالى هو محجة العقل وهو معبوده ووليه. وحين يتولى الله العقل بالهداية، يعطيه من العلوم ما صح وما يجب أن يتوفر لكي تكون حياته صالحة طيبة نافعة، ويهيئ له من أسباب الرشاد ما يزداد به وعيا وما يكتسب به رؤية حقيقية لنفسه وللحياة وللعالم ...وبذلك يحول بينه وبين كل أنواع الاستلاب الشيطاني الذي يتولى مريديه بالأوهام والأباطيل، فلا يهديهم إلا إلى الخراب. لذلك تنقسم الإنسانية بحسب العقل وعدمه إلى قسمين أساسيين: قسم هم الحجاج القاصدون إلى ما وراء القبر، إلى الله الواحد الأحد.

هؤلاء وبولاية الله تعالى لهم، حجوا إلى مبدئهم وأعادوا الصلة بخالقهم عن رضا فحق لهم مقام الرضا، وهو الجنة. وقسم كافر تولاه الشيطان فهداه إلى أن غاية وجوده القبر، فلا يلبث في عمى ولا يزداد كلما تقدمت به الحياة إلا ضلالا وجنونا، فلا يموت إلا وهو مجنون جنونا مطبقا ليس له من العقل ذرة. فإذا ما كشف الله تعالى عن النفوس غيبَها يوم القيامة، بدا فراغ أفئدة الكافرين لأنها لم تمتلئ في الأرض إلا بالهواء.

وهل من هواء أكبر من صور الشيطان ووسواساته وحديثه الفاسد، يقول تعالى : «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما

يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار* مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء»[1].

وما امتلأت أفئدة هؤلاء الظالمين بالهواء عوضا عن امتلائها بالقول الثابت وهو قول لا إله إلا الله، إلا لأنهم عبدوا أهواءهم واتبعوا شياطين الإنس والجن. يقول تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»[2].

إن الخطاب القرآني باهر الدلالة هنا، ففي قوله تعالى «واصبر نفسك»، تأكيد على أن الإنسان المخاطب والمكلف والمستخلف هو غير النفس أو هو عقل النفس القادر على أن يوجهها وأن يضعها حيث يريد.

والله يدعو العقل (الخليفة)، إلى أن يحكم نفسه بالصبر، وأن يجعلها مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الذين يريدون وجه الله. وهؤلاء لا بدّ لهم من الصبر لأن وجه الله لا يظهر إلا لمن كفت الدنيا عن إغرائه وأصبحت زينتها في عينيه بمثابة التراب الذي يمشي عليه لا يفرق بعضه من بعض، ولا يكترث له.

إن هذا العقل المؤمن هو أقوى العقول، وصاحبه أقوى خلق الله لأنه تحكم في نفسه. فدلّ بذلك على قوة العقل. فقوة العقل ليست في كثرة المعلومات لا وليست في قلتها، وإنما هي في التحكم في النفس. فمعيار قوة العقل : التحكم في النفس. فإذا تجاوز العبد هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وهم أهل الله من المسلمين، فلا ريب أن ذلك لا يكون منه إلا بسبب الالتفات إلى زينة الحياة الدنيا والرغبة في

(١) سورة ابراهيم:٤٢-٤٣

(٢) سورة الكهف: ٢٨

زخرف الأرض .

إن المسيرة المعاكسة لمسيرة العقل وهي التي يمكن أن نطلق عليها طريق الغفلة، تبدأ بالقلب الذي ينسى ربه، فيتصور كل شيء ويصوّر كل شيء، ويتبع كل شيء إلا طريق ربه الحق. إنه المفرّط، والتفريط ضد العقل. فالعاقل من حكم نفسه وملكها، والمفرط من فرّط في نفسه من حيث ظن أنه يسعدها ويهبها الهناء. ويكون التفريط في النفس باتباع الهوى. وفي اتباع الهوى يكون الردى. يقول تعالى «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى»[1].

إن معركة الحقيقة وقضيتها لا تحسم على مستوى المعرفة المجردة، بل على مستوى العمل. فإنكار الله تعالى وإنكار الساعة (البعث)، وثيق الصلة باتباع الهوى. والإيمان بالله تعالى والاهتداء إلى عقيدة البعث يرتبطان ارتباطا عضويا بإلغاء الهوى.

والأمر هنا كما في مبحث الحرية، بل هو عين مبحث الحرية.

إن حرية الانتماء إلى الحقيقة وإعلانها لا تتحقق إلا بالانتصار على الذات، أي على الذاتية بما هي أنانية وانحصار وحجاب، والقبول في المقابل بالنسق الموضوعي للوجود والحياة. لذلك يجد صاحب الهوى نفسه مدفوعا إلى نفي موضوعية الحقيقة؛ وبقدر تحكم هواه يهرب من العالم الموضوعي.

لأن مسيرة الهوى تنصيب النفس ككيان متحكم في الوعي أي في الحقيقة. ولا يُنصِّب النفسَ بهذا الاعتبار أي بهذا الكبر الكاذب، إلا الشيطان. فوراء مبدأ الذاتية بهذا المعنى الذي كنا نذكر يكمن الشيطان الذي قلنا إنه ما إن يوحي للنفس بالتخلي عن ربها وذلك عبر رفض سلطة العقل وخلافته عليها وإنكار فضله ودرجته، حتى

(١) سورة طه: ١٤-١٦

يتحكم هو فيها. حيث إن النفس بحسب التكوين الإلهي القاهر والذي لا يتبدل، محل قابل يستحيل أن يستعصي على ساكن إلا إذا امتلأ بساكن آخر.

فالنفس في القضاء الإلهي الصارم ، إما أن تقبل حكم الله أو أن تقبل حكم الشيطان، وهي بالخيار أما أن لا تقبل حكم الإثنين فهو المستحيل عينه.

ثم إن الآية 28 من سورة الكهف، تكشف عن الغذاء الأساسي للعقل المؤمن وهو الذكر. فالعقل المؤمن يتغذى بذكر الله صباحا ومساء وفي كل وقت، ليس له غذاء إلا هذا.

إن قولة لا إله إلا الله تجري مع الأنفاس، وتمام ذكر القلب المؤمن أن يكون كل نبض من نبضاته معناه لا إله إلا الله. فانظر أي وعي يدعونا إليه الشرع الحنيف، وانظر مدى تقصيرنا في حق ربنا جلّ وعلا. فلا أقل لتمام العبادة من أن نقول مع كل نفس لا إله إلا الله ونحن نقضي الساعات بل الأيام بدون ذكرها، ويصبر الله علينا فلا أقل حينئذ من الاعتراف بالتقصير، وعمل ما في الإمكان عمله وبذل أقصى الطاقة وما في حدود الوسع مع الاستغفار الدائم والتأكد الفعلي والصادق من وقوع التقصير، فإن لم يكن الإنسان في إحدى هاتين المرتبتين، فهو على خطر عظيم ويوشك أن يرديه الله بسوء عمله وسوء تدبيره.

يصح حينئذ أن نقول إن حكمة القرآن تتمثل في التأكيد أن الحياة هي حياة القلب، وأن حياة القلب بذكر الله. وأن في التحكم في النفس وأمرها ونهيها أي في أخذها بأحكام الشريعة المطهرة، حياتها وسلامتها وطمأنينتها.

من هنا لزمت الشريعة، وأصبحت الطريقة دربا مفروضا. فإذا كان الحج ينتهي إلى البيت العتيق وهو عين النفس المطمئنة، فلابد من طريق إلى هذا البيت.

ولا طريقة إلا الشريعة المطهرة التي نزل بها القرآن العظيم وجسدها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. أما ما يذكر من طرائق منسوبة إلى بعض المؤمنين، فهي إما مناهج عارفين استوحوا من الشريعة حقائقها، وجعلوا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نورا هاديا فحينئذ ترجع إلى منبعها وهي الشريعة القرآنية، وإما بدع وإضافات أوحى بها الشيطان إلى أوليائه من أهل الزيغ والضلال وهم كثر، فحرّفوا وأضافوا، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وأظهروا الأهواء في ثياب التقوى.

فهؤلاء إما أجهل الجاهلين أو أكابر المنافقين إلا أن يتوبوا. ومن لم تكفه شريعة الله ولم يغلب نفسه باتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلن يتغلب عليها إطلاقا مهما ادعى وسعى.

لماذا يتعارض اتباع الهوى مع موضوعية القصد إلى الحقيقة ؟

لمّا كان الهوى (هوى النفس)، لا يقوم إلا على نفي حقيقة موضوعية وإلا فإنه ليس بهوى. فالهوى هو نفي الحقائق الموضوعية المتصلة بالذات، والذي يترتب عنه نفي الحقائق الموضوعية المتصلة بالوجود.

إن نظام الذات هو نظام الوجود لأن المنظِّم واحد. فمن خلال التعامل مع الذات يكون التعامل مع الوجود، فلو اعترفت لنفسك بالحق في أن تبذر كما تشاء أي أن تنفق بدون نظام، فسينشأ عن هذا أحببت أو كرهت نسيانك أولا إلى أنه لا يوجد في العالم الموضوعي أي إنفاق ضائع بل كل شيء فيه يجري بمقدار، وينشأ عنه ثانيا قبولك بعبث الآخرين في الإنفاق، لأن النفس تعذر الآخر فيما عذرت فيه نفسها حتى لو ادعت العكس زورا ونفاقا.

وسينشأ عن ذلك ثالثا مخاصمتك بالحال أو بالمقال أو بالفعل لكل ذي منهج وخطة صارمة في الإنفاق لأنه يصبح حينئذ عدوا لك (أي لنفسك).

فإذا ما كان اتخاذك للتبذير نهجا عن ضعف في نفسك تعلمه ولا تسعى في مقاومته، فإن هذا باب الخراب إليك، لأنك بذلك أظهرت مقتلك وكشفت للعدوّ سوأتك التي سيسارع إلى فضحها.

فهناك أولا الاعتراف بانشطار الحق بينك وبين الوجود، فهنا خاصمت الوجود أحببت أم كرهت. وهناك ثانيا فصلك لنفسك عن الحقيقة وبالتالي افتقاد قاعدتك المتينة التي هي مصدر أمانك، وهناك ثالثا قبولك بمبدأ السلطة عوضا عن مبدأ الحرية لأن خضوع النفس لمطلب غير مبرر يجعلها تخضع بالضرورة لقهر غير مبرر سواء أكان قهر شياطين الجن أو شياطين الإنس.

بذلك تنصّب على نفسك آلهة ما كانت لتتأله فيها لولا فساد أهوائك واتباعك الشهوات. فإذا ما أصررت على مبدأ الفصل بين العمل والعلم ، ركبك النفاق فعبدت إلهين: الله الحق الذي تعلم أنه لا إله سواه ودليله اقتناعك بفساد التبذير وهذه معلومة مصدرها الحق تعالى؛ وخضعت من دونه للشياطين والطواغيت لأنهم سيدعونك إلى فعل لا تؤمن به، وإلى الصمت عند لزوم الكلام والكلام عند لزوم الصمت. فلا تمتنع لأنك تعودت أن تقبل بهذه الثنائية حفظا لنفسك على ما تزعم، وفي الحقيقة ما حفظت نفسك بل ضيعتها حيث أدخلت عليها الشياطين والطواغيت، وكنت قادرا على أن تمتنع عن ذلك برفض الشهوات واتخاذ مبدأ وحدة الحقيقة والفعل.

إن النفس الإنسانية لها استعداد كبير للإقبال على الحياة الدنيا وزينتها، ولها استعداد للتأثر بهذه الزينة والفرح بهذه الأعراض الزائلة. وإقبالها عليها وفرحها بها لهو من الأمور والحقائق الشديدة الغرابة والشديدة الاستعصاء على التفسير، فما الذي يجعل الناس مثلا يتقاتلون قتالا لا هوادة فيه من أجل السلطة ؟.

وما الذي يجعل الرجل يستهين بكل الآداب والقواعد الأخلاقية

ويستبيح كل المحرمات في سبيل نيل وطر من أنثى هي زوج لغيره؟

وما الذي يجعل من بعض الناس إن لم يكن أغلبهم قابلين للاستبداد والتسلط والظلم بشكل لا مثيل له يمارس عليهم ليلا ونهارا فلا ينتصرون ؟

حقيقة أن أمر هذه النفس الإنسانية لهو العجب العجاب. يقول تعالى «بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى»[1].

إن أخطر آثار اتباع النفس وإقبالها على الهوى انفصالها عن الحقيقة الكلية للإنسان وهي الحقيقة الموضوعية من كونه كائنا خالدا ذا بعد أخروي صحيح. إن الترتيب الإلهي عجيب بين حركة الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة.

فكل وسوسة للنفس تتعلق بالدنيا، تنقص من قوتها وقدرتها على التعلق بالآخرة. إنه جدل المتناقضات فحب الدنيا وحب الآخرة لا يلتقيان في نفس واحدة معا إلا أن يلتقي النهار والليل في وقت واحد. وليس من حل لهذه المعضلة الوجودية التي هي لب إشكالية التدين نفسه إلا بالنظر إلى تنظيم الله تعالى لدوران الأرض بحيث يعقب ليلها نهارها.

فالنهار والليل يمكن أن يوجدا معا ولكن ليس في وقت واحد، بل بحسب نظام التعاقب. فيأتي الليل ثم يعقبه النهار. والنهار للعزم والليل للسكينة والاطمئنان والراحة، ولابد لمن أراد أن لا يأكله الليل أن يضيئه بأنوار النهار ومصابيحه وهي العزائم الصادقات المتمثلة في العبادات الليلية.

إن قيام الليل بذكر الله يفلق ظلمة الليل ويجعله أشد ضوءا من

(١) سورة الأعلى : ١٦ _ ١٩

النهار المنير. إن الليل في الاعتبار هو النفس، أو هو هذه الحياة الدنيا، فهي ليل كلها من حيث هي طلاسم وألغاز وكون لا قعر له، على الأقل بالنسبة للإنسان الذي يعلم أنه اليوم في كون يتوسع باستمرار، وعالم تتوالد حقائقه باستمرار، وتتبدل معانيه وتتغير أبعاده في كل لحظة وحين.

فموقع الإنسان أصلا هو موقع ليلي، وهو لا يدري الأين ولا الكيف ولا المتى. إن المعلومات الفلكية الحاضرة والتي نوقن أنها ليست سوى بعض حقائق الكون وذرات عن علم الله بما أوجد وكوّن، تكشف عن أننا نحن البشر بالفعل فوق كوكب هو ذرة في خضم الكواكب والسيارات والنجوم.

فمن أين لنا وقد دارت بنا الدائرة، أن نملك التحديد والتوجيه والتسيير؟ ما أسوأ جهل هذا الكائن الذي يسير به كوكب مجهول في عالم مجهول إلى حيث لا يدري مايفعل به ولا بغيره وهو يدعي أنه صاحب أمره ومالك سر نفسه[1].

أما المؤمن، فسلّم لله أمره. فإن قلت ومن هو هذا الإله؟ أجابك الخليل ابراهيم عليه السلام «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»[2].

أما نهار هذه الذات الإنسانية المكرّمة فهو العقل. ولذلك كان العمل في النهار حتى يهتدي الإنسان إلى سبله ويتبين ما يعمل. فمن عمل في النهار فقد وافق الطبيعة التي لا يختلف منطقها. ولذلك فإن الإنسان الذي يتصرف في نفسه على ضوء عقله، هو كالفلاح الذي يزرع أرضه في واضحة النهار، فيعلم ما يزرع ويعي ما يفعل، فيوفق بإذن الحكيم العليم. أما المقبل على نفسه بدون

(١) فلنتدبر قوله تعالى :» قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين» سورة الأحقاف : ٩

(٢) سورة الأنعام : ٧٩

عقل، فكالمقبل على الأرض في ليل دامس يريد فلحها وتشذيب أشجارها وغراستها وسقيها، ويطمع بعد ذلك في أكل ثمرها. فهذا ما لم نر من يفعله في ظاهر الوجود، أما في باطن الوجود الإنساني فأغلب الناس يفعلونه ولا يتحرجون، وما ذلك إلا بفعل الجهل والضلالة العمياء والصمم الناشئ عن استفحال سلطة الأهواء.

فمن أقبل على نفسه بعقله، كان كمن أقبل على أرضه في وضح النهار، فطوبى لمن علم أنه أرض وأنه يتواتره الليل والنهار فاغتنم من نهاره، وزاد فنوّر ليله بالسكون إلى ربه الواحد الأحد الديان. إن هذا المخلوق لا يزال في مزيد نور، ولا يزال في مزيد سعادة حتى يصبح نورا كله. وفي لحظة الفجر حيث يلتقي الليل والنهار بإذن الله تطمئن نفسه بما حوت كمال الوقت وأحاطت بكلية الزمان. فإذا حاز علم الليل والنهار، كان حريا وحقا على الله أن يجازيه بالرجعى إليه حيث النور الخالص وحيث سكينة الوجود وسعادة الأبد.

إن المؤمن كائن نوراني يطلب النور أنى وجد، وهو لا يحيا إلا في النور. وإذ ابتلاه الله بالليل، بهذه النفس، فقد وجب عليه أن يجعل ليلها نهارا وظلمتها نورا وجهلها علما.

ولا يكون ذلك إلا بالعلم اليقين «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير* الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون»[1].

والعلم الذي يجعل ظلمة النفس نورا هو على التحقيق العلم الإلهي الذي لا يدانيه علم، وهو من حيث صدقه اليقين الذي لا ذرة شك فيه.

(١) سورة البقرة : ١٢٠-١٢١

وعلم الله تعالى جاء في كتابه. ففي كل كتاب لله يوجد علم الله. وعلى التحقيق فما بقي سوى القرآن المجيد حاويا لعلم الله اليقين. أما كتب الله السابقة فقد تفضل اللهالرحمن الرحيم بدمج نسختها في القرآن الكريم، فجاء حاويا لعلوم الأنبياء كلهم، وجاء بعلوم الأوائل والأواخر.

فانظر إلى قوله تعالى «إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى»، تعلم أنه تعالى جعل القرآن كتابا جامعا ونسخة حاوية لكل ما سبقها. أما اليهود والنصارى، فقد ارتكبوا الإثم العظيم بافترائهم على الله الكذب وتحريفهم لكتبه المقدسة. ولذلك، فلا يزالون في بلبلة وفي شك، ولسوف يبقى الشك والريب سمة عقولهم وطبعا في أنفسهم حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وأما هذا الكتاب الأشرف المبارك، هذا القرآن الكريم فيرثه آل ابراهيم جيلا بعد جيل، كما ورثهم الله تعالى الحكمة والملك العظيم رغم حسد الحاسدين: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا»[1].

فهذا الكتاب ليس ملكا لأمة بعينها ولا لشعب بعينه، بل هو إرث ابراهيمي محمدي إلهي المصدر للناس أجمعين «أم يحسدون الناس»؛ وهو لا يلتفت إلى أولئك الذين يريدون أن يجعلوه إرثا يتناقلونه بالتبعية لآبائهم وأجدادهم.

إن أغلب من يدعون اليوم أنهم مسلمون إنما هم في الظلمات يعمهون. وقد أضلّهم الشيطان كما أضلّ قبلهم اليهود والنصارى، فحسبوا أنهم بمجرد ولادتهم لآباء مسلمين وبمجرد التسمي بأسماء ابراهيم ومحمد قد انظموا إلى آل ابراهيم، ونسوا أن هذا الكتاب

(١) سورة النساء: ٥٤-٥٥

هو كتاب الإنسان بلا هوية عرقية ولا خصوصية جنسية. وعوض أن ينظم هؤلاء الزاعمون للإسلام إلى القرآن لكي يستفيدوا علومه، فإنهم اليوم أغلبهم في زيغ وضلال تتلاعب الدنيا بقلوبهم كغانية فاجرة أمام عشاق اللذة تسقيهم بعينيها أوهاما يزدادون بها ظمأ، فما أورثهم ادعاؤهم لوراثة القرآن بدون احترام لكلمة الله الواحد الأحد الحي القيوم الفرد الصمد الجبار القهار ذي الجلال والإكرام، إلا نفاقا جعلهم أخبث أهل الأرض وأكابر مجرميها وأفسد طينة. وهم مقارنة بغيرهم من الخلق الضالين، كالمنافقين إذا ما قورنوا بالكافرين والمشركين، وجدت لديهم خصال الفريقين مع زيادة خصال النفاق.

القرآن الكريم صريح في أن الإنسان إذا عقل فإنه يملك نفسه، وإذا ضل فإنه بيده أضلها وضيعها. ولذلك جاء خطاب الشرع المطهّر محرضا على تطهير النفس وداعيا إلى كمال العقل بكمال تطهير النفس.

فكلما ازداد الإنسان تحكما في نفسه ازداد عقلا، وكلما ازداد عقلا ازداد علما، وكلما ازداد علما ازداد يقينا، وثمرة اليقين الإيمان، وثمرة الإيمان الإسلام، وجزاء الإسلام الأمان في الدنيا والجنة في الآخرة.

هذا هو العلم الإلهي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو العلم القرآني الصافي الصادق المحكم الذي لا يقبل التأويل ولا الزيادة ولا المزايدة. والوجه الثاني لهذا العلم، أنه كلما ازداد الإنسان ضعفا أمام نفسه (اتباع الهوى)، ازداد جنونا (ضد العقل). وكلما ازداد جنونا ازداد جهلا، وكلما ازداد جهلا ازداد شكا.

وثمرة الشك الكفر، وثمرة الكفر الشرك، وجزاء الشرك الخوف في الدنيا والنار في الآخرة.

والنفس كما يجلّيها القرآن، هي محل التربية والتزكية والتطهير، وهي محل العجب والكبر، وباختصار هي محل الفجور والتقوى. والفلاح يكون بتزكيتها والخيبة تكون بدسها، يقول تعالى «ونفس وما سواها* فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها»[1].

جاء في لسان العرب]...دسه يدسه دسا إذا أدخله في الشيء بقهر وقوة. وفي التنزيل العزيز. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها، يقول أفلح من جعل نفسه زكية مؤمنة وخاب من دسّسها في أهل الخير وليس منهم، وقيل: دساها جعلها خسيسة قليلة بالعمل الخبيث. قال ثعلب: سألت ابن الاعرابي عن تفسير قوله تعالى : وقد خاب من دساها، فقال: معناه من دس نفسه مع الصالحين وليس هو منهم.

قال: وقال الفرّاء نفس دساها الله عز وجل، ويقال: قد خاب من دس نفسه فأخملها بترك الصدقة والطاعة (...) قال : ويُرى أن دسّاها دسسها لأن البخيل يخفى منزله وماله، والسخي يبرز منزله فينزلٍ على الشرف من الأرض لئلا يستتر عن الضيفان ومن أراده، ولكلّ وجه... «.

وقد جاء في لسان العرب في تفسير كلمة النفس قول ابن الأعرابي: «النفس: العظمة والكبر والنفس العزة والنفس الهمة والنفس عين الشيء وكنهه وجوهره والنفس الآنفة والنفس العين التي تصيب المعين والنفس: الفرج من الكرب...».

يتبين من خلال الآيات السابقة من سورة الشمس أن أمر النفس بيد صاحبها، وأنها مجال العمل وموطن الابتلاء بالنسبة للإنسان، وهي كالحقل بالنسبة للفلاح والبحر بالنسبة للصياد.

وقد بيّنا أن جوهر الوجود الإنساني القلبي الباطني الغيبي دائرة

(١) سورة الشمس: ٧-١٠

نصفها العقل ونصفها النفس. وهو تمييز على سبيل الاعتبار، حيث أن الإنسان في الحقيقة نفس واحدة، إلا أنها من حيث الوظيفة ثنائية العمل، فجانب منها فاعل (العقل)، وجانب منها مفعول النفس. ولابد للجانب الفاعل أن يبرز أثره، ولا يبرز إلا في الجانب المنفعل. وكما لا يبرز أثر عمل الفلاح إلا في الأرض، فإن أثر العقل لا يبرز إلا في النفس. فالنفس مرآة العقل الصادقة التي تدل على ظهوره أو انحجابه، وعلى قوته أو ضعفه، وعلى وجوده أو عدمه، وعلى صحته أو فساده، وعلى قوته أو ضعفه، وعلى وجوده أو عدمه، وعلى صحته أو فساده.

ولذلك فالنفس هي عين الإنسان وكنهه وجوهره. فالبحث عن مستوى إنسانية الإنسان يكون في معرفة نفسه وفحص حقيقتها، والبحث في أمر النفس يتصل أساسا بمعرفة من يتولاها ومن يغذيها. فإن النفس كالرضيع لابد لها من أم مرضع ولا بد لها من شراب، وبحسب الشراب يكون نموها.

وعليه، فإن النفس إذ تخالط العقل تصبح عين الإنسان. فإن خالطت عقلا نيرا حقيقيا كانت عينا نورانية والرسول صلى الله عليه وسلم يقول «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، وإن بقيت بدون عقل كانت كالشجرة التي لم تذكّر (تلقح) لا تثمر، فإذا أثمرت فنبتا نكدا وثمرا مرّا. فالعقل هو لقاح النفس.

فصحت الزوجية لباطن الإنسان وغيبه، كما صحت في ظاهر حياته. فالإنسان في الظاهر ذكر وأنثى وفي الباطن عقل ونفس. وقد فصّل الله تعالى في الظاهر الذكر عن الأنثى، ولكن جعل تركيب جسد كل منهما لا يفهم له معنى ولا تحصل منه ثمرة إلا بولوج الجسد الآخر فيه ومن تكامل الجسدين تحصل الثمرة (الولادة) «سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا

يعلمون»[1].

وقد جعل الله تعالى الزوجية رباطا وميثاقا غليظا، وجعل أحسن علاقاتها المودة والرحمة. فذلك المطلوب في ظاهر الشريعة لظاهر العلاقة الزوجية، هو المطلوب في باطن الشريعة لباطن العلاقة الزوجية بن العقل والنفس. فإذا قلنا ظاهر وباطن فلا لنفصل بل لننبه إلى أن الظاهر مرآة الباطن وإلى أن الظواهر اعتبارات يقصد من ورائها التنبيه إلى الغيب الباطن. فهي كالآيات الكونية، يقصد بها التنبيه إلى وجوده سبحانه وتعالى.. وهكذا، فقد استخلف الله تعالى العقل على النفس وجعل له القوامة عليها «الرجال قوامون على النساء»[2]؛ وطالبه بإصلاحها وتزكيتها، وأنزل الشريعة المطهرة من أجل هذا الهدف النبيل.

فمن أبواب تزكية النفس تجنب الشح الذي تحدِّث به نظرا لفقرها المدقع وفراغها الأصيل. يقول تعالى «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[3].

وفي سورة التغابن يعيد الله نفس التحريض «فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»[4].

وفي هذا التكرار لمسألة شح النفوس تأكيد ولا شك على الصفة الأساسية للنفس: «الشح»، وأن أهم تزكية للنفس والفلاح في تزكيتها يكون بتوقي شحها، فبماذا تشح النفس ولماذا تشح ؟

(١) سورة يس :٣٦

(٢) سورة النساء: ٣٤

(٣) سورة النساء: ٣٤

(٤) سورة التغابن : ١٦

والجواب وبالله التوفيق، إن النفس تشح بالبذل والعطاء والإنفاق، أي بصفات الفعل والتأثير والمدّ لتستجيب أكثر وبصفة غريبة إلى نداءات الأخذ وأوصاف الانفعال وخِلالِ التأثر والاستفادة والاستغلال؟

أما لماذا ؟ فالجواب وبالله التوفيق، لأن النفس لا تملك شيئا لتعطيه، وهي بفعل غريزة الرغبة في الوجود وحب البقاء تريد أن تبقى وأن تأمن وأن تطمئن وأن تستمر وأن تسعد. وهذه المطالب كلها حاجات أساسية للنفس تطلبها بلا هوادة.

وهي في طلبها هذا إما أن تطلبها من مصدرها وهو الله تعالى لا سواه. ولا يكون هذا الطلب إلا من النفس العاقلة أي التي اكتملت دائرتها على ما بينا آنفا؛ أو أن تطلبها من مصدر وهمي هو الشيطان بأي وجه تجلى لها، وحينئذ فإنه يعطيها أوهاما لا تزيدها إلا شعورا بالحاجة ورغبة في الشح والبخل.

فالشيطان الذي يعطيها أوهاما يعوّدها ويذلها بأن يحسب عليها كل قطرة وهم يقطرها عليها. فهو يسعدها بكلمة، ثم يمن عليها السعادة بتلك الكلمة.

فلا يلبث أن يشقيها أضعافا بكلام أيضا.. أما الله تعالى فيعطي للنفس أمانا حقيقيا، ويمتعها بطمأنينة صادقة ويثبّت أركانها بوعد حسن صحيح ترى آثاره في كيانها. فكلما ازدادت النفس العاقلة صلة بربها وشربا من نبعه ومائه وهو «الذكر»، كلما ازدادت أمانا وراحة وسعادة. فإذا دعيت إلى العطاء حينئذ، فإنها لا تبخل، ثقة منها في قوة موجدها جل وعلا صاحب النعمة عليها، الذي يبلغ بها أقصى درجات العطاء والبذل، فتقبل على الموت مختارة طائعة رضية بائعة نفسها لله تعالى، ترى في الموت سعادة وأيّ سعادة. ما أعظم هذه التربية الإلهية، وما أروعها، وما أعظم هذا المربي الخالق الذي له تأثير مطلق على خلقه، كيف يصل التوافق بينه

وبين عبيده المطيعين إلى هذه المراتب العليا السنيّة.. فلا تعطي النفس، ولا تتجنب البخل إلا إذا ما زاوجت العقل المستنير بربه، أي إذا اطمأنت. أما النفوس التي يتولاها الشيطان، فهي أبخل النفوس وأشد الخلق شحّا.

وقد تطمع في الحيوان الأعجم أن يرحم ويحن ولا تطمع فيها. وهذا نراه رأي العين، فبعض الخلق يبخلون على إخوانهم حتى بالاعتراف أنهم بشر مثلهم. ثم إن الله تعالى يقول ناهيا عن تعدي حدوده في سورة الطلاق «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا»[1].

الآية الاولى من سورة الطلاق تتحدث عن حدود الله وتتجه أساسا إلى العقل المستخلف ممثّلا في قمته وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن ورائه المؤمنون المتأسون بنوره صلى الله عليه وسلم. وتجعل هذه الآية الطلاق عملا ومهمة من مهام العقل، ولكنها تربطه في نفس الوقت بمنبع ومصدر عقلانيته وهو علم الله تعالى وأمره ونهيه.

ولذلك فبعد إصدار بعض الأوامر الأساسية أكد الله بقوله «تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه».

إن العقل وقد أوتي فضل الفصل في هذه العلاقة الزوجية المكرّمة ليس له إطلاقا أن يستعلي وأن يحكم بالهوى. وهو هنا محاسب أشد الحساب، ومراقب من قبل رقيب عتيد. وما يفعله على هذا المستوى محسوب عليه بمثقال الذرة. فلا يطمع رجل طلق زوجه لغيرما فاحشة أتتها، وأخرجها من دارها بدون أن تحصل منها

(١) سورة الطلاق:١

فاحشة مبينة في أن تبقي نفسه بعد ما فعل على طمأنينتها. فكما أثار نفسا في الخارج فسوف يثير الحق نفسه في الداخل.

ومن ظلم نفسه فليرتقب القصاص، لا يشك في ذلك إلا جاهل بعدل الله وجبروته، وسننه التي لا تخلّ.

إن الله تعالى يجعل العقل مناط الإنسانية وجوهرها، والنفس مجلى هذه الإنسانية. يقول تعالى في القرآن المجيد «بل الإنسان على نفسه بصيرة* ولو ألقى معاذيره»[1].

هذه الآية محكمة حاسمة صارمة دالة على موقع الإنسان من نفسه وموقع نفسه منه. فالإنسان وهو الخليفة، وهو في التأويل الأصح: العقل، الذي هو في حقيقته روح الله الأقدس، هوالخليفة وهو الظاهر في المملكة الإنسانية بتأييد الله تعالى وتنظيمه وتقديره وقضائه. فهو بصيرة نفسه، وهو الشاهد عليها. هكذا أراد الله تعالى وهكذا أمره وهكذا بنى الله هذه المملكة الإنسانية. غير أن أغلب البشر تنقلب عليهم أنفسهم بظلمهم لها إما جهلا بالحقائق أو عتوا عليها، فيجعلون النفس ظاهرة على المملكة، ومن وراء النفس المستعلية يأتي غُواتُها من شياطين الجن والإنس. فإذا ما شعر الإنسان بهذا الزيغ وهذا الفساد في نظام كيانه، رأيت أغلب البشر وإن سلموا بحصول الفساد (وهذا من دلائل وجود فطرة الله السليمة في الإنسان)، فإنهم لا يقرون بأنه منهم ومن نتاج أفعالهم، بل يلقون معاذير تدور كلها حول الاضطرار وعدم الاختيار، وحول اتباع الآباء وتقليد التيار الغالب على الإنسانية وكلها أوهام وضلالات لا يقبلها الحق تعالى.

إن هذه النفوس الإنسانية لا تفجر ولا تستعلي ولا تعتو على أصحابها إلا بسوء تدبيرهم لها، وبتفريطهم في إحكام هذا التدبير وتصور أن المملكة الإنسانية يمكن أن تنتظم بدون نظام، وأن

(١) _ سورة القيامة: ١٤-١٥

تستقر بدون قانون.

وهم يطلبون المستحيل ولا شك، فلو أن العالم من حولهم ينتظم بدون منظم لحق لهم أن يتصوروا انتظام ذواتهم من دون نظام. أما وهم يرون كل يوم أنه لولا القانون لما انتظم العالم فكيف يتصورون حصول سكينة بنيانهم وانتظام حياتهم بدون قانون ؟ لا توجد آية كونية واحدة إلا وهي تنبه إلى النظام والإحكام.

إن الحيوانات والعجماوات بل الحشرات والذرات إذا ما اجتمعت فلا بد أن تنتظم، وسبحان من جعل في مملكة النحل الملكة والعاملات وصنّفها أصنافا وأحكم عمله إحكاما، ثم يأتي هذا الإنسان صاحب «الرأي السديد» و«العقل الرشيد» ليتحدث عن العبث وعن الصدف وعن «الظروف» وعن «الأسباب»، فسبحان الله ماذا يطلب هذا المخلوق؟ هل يطلب أن يغير الوجود لمجرد أنه توهم وهما واتبع ظنّا؟ فأولى له أن يقتنع أن نظام الوجود لا يتغير لأجل أحد من الخلق، وأن الله تعالى لا تفرض عليه أحكام الخلق، بل هو الحاكم سبحانه لا راد لحكمه[1], فإن وعي واتقى ولام نفسه على التقصير،وآب إلى الحكيم القدير فلعل ذلك أن يكون باب الخير ومدخل الغفران وتوبةالرحمن عليه. أما إن استكبر وتولى، وما صدّق ولا صلّى، فلن يترك سدى ولابد من قيامة يبعثه الله فيها فيدمر عليه أركانه، ويمحق بنيانه.

---

(١) ١ _ فلنتدبّر قوله تعالى :» ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون» المؤمنون : ٧١

د_ نفس تهب نفسها

إن حديث القرآن عن النفس يصل إلى قمة معجزة في تبيين خصالها وتوضيح أسرارها وتفصيل أحكامها.

ولا غرابة، فالله خالق النفس وربها وصانعها هو المتكلم بالقرآن. يقول تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: «يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما»[1].

موضع الاعتبار في هذه الآية ومناط اهتمامنا فيها هذه المرأة المؤمنة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد حصل ذلك فعلا على ما جاء في كتب السيرة وحكمها أنها حِلّ للنبي صلى الله عليه وسلم خالصة له من دون المؤمنين[2] .

فماذا تعني هبة المرأة نفسها ؟ ولماذا قبل الله فعلها؟ ولماذا جعل نكاحها حلاّ للنبي صلى الله عليه وسلم دون غيره من المؤمنين؟

إذا انطلقنا من عمل هذه المرأة المؤمنة ونظرنا فيما فعلت بنفسها، فسنجد أنها وهبتها كاملة للنبي صلى الله عليه وسلم، والهبة كما نعلم لا تسترد. فهل يجوز أن يعطي الإنسان نفسه ؟ ولمن يجوز إعطاؤها؟

(١) سورة الأحزاب: ١٥

(٢) _ جاء في تفسير بن كثير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة فقالت يارسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياما طويلا، فقام رجل فقال يارسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:» هل عندك من شيء تصدقها إياه؟» فقال ماعندي إلا إزاري هذا.. الحديث» نفسير القرآن العظيم، بيروت دار الكتب العلمية،١٩٩٤، ط ١، مجلد ٣، ص ٤٥٧

إن القرآن واضح الدلالة بيّن الإشارة في تحرم إعطاء النفس وبيعها لغير الله تعالى، بل إنه عبّر بالبيع فجعله أسلوب التبادل بينه وبين عبيده المؤمنين «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم»[1].

فكيف يحل لهذه المرأة أن تهب نفسها للنبي ؟.

والجواب وبالله التوفيق، أن النفس الإنسانية لا تستقيم بدون عقل يلحقها بأنوار الله تعالى، ويحكم ربطها بربها، ويدرأ عنها عبادة الطاغوت من دون الله الواحد القهار. والنبي صلى الله عليه وسلم عندنا هو العقل المستنير الكامل الذي كمله الله تعالى بكمالات الإنسانية، وجعله أنموذجها وقدوتها وأسوتها.

فإذا رغبت نفس مؤمنة في كمال الإحصان، فلن تجد عقلا أرفع من النبي صلى الله عليه وسلم يعقلها. غير أن هبتها لنفسها تعني أن ليس لها حق استرداد هذه النفس، أي أنها قبلت كنفس مؤمنة أن تذوب في ذات عقل النبي صلى الله عليه وسلم وأن لا تعقل لها وجودا نفسيا خاصا بل أن تصبح ضمن دائرته وفي حوزته وداخل ملكيته.

إن هذا الحكم الخاص يشرّع لفناء النفس في العقل، ولكن في حالة واحدة لا تتكرر وهي حالة النبي صلى الله عليه وسلم. لماذا؟

والجواب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بما هو عقل مؤيّد مسدّد مستنير بوحي ربه، لن يجد في هبة المرأة المؤمنة نفسها له أي سبب للكبر والاستعلاء. وهو الأمر الذي لا يؤمن من جانب سواه. فأن تهب نفس نفسها بهذه الكيفية أمر له دلالته الحقيقية على مدى قوة العقل النبوي المكرم، وقوة جاذبيته وشدة استقطابه وصلابة معدنه. والحقيقة أنه عقل أقدس مكرّم ترجو من ورائه هذه الإنسانية الكادحة أن تنال مقاما محمودا، وأن تبعث بعثا نيّرا

(١) _ سورة التوبة:١١١

سعيدا بإذن الله تعالى. ثم إن هبة المرأة المؤمنة نفسها للنبي تتوقف على قبوله هو هذه الهبة، وقد قبلها صلى الله عليه وسلم بقبول حسن، ثم زوّجها أحد أصحابه. فدل بذلك على كمال ذاته، وعلى أنه عقل محض، ونفس كاملة ِلا تقبل المزيد بما تولاها الله تعالى بأنواره وأسراره، وأنه إنما أَجْرَى القبولَ التزاما بالشرع الحنيف الذي يحرض على قبول الهدية وعلى عدم رفض الهبة إن لم يكن فيها ما يخلّ.

هـ _ النفس الشهيدة

أما قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :»وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتكم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم»[1].

ففي هذه الآية من سورة البقرة حقائق باهرة حول النفس الإنسانية وأحكامها. فهناك أولا مسألة ظلم النفس حيث يتبين أنه درجات، وأنه في كل الحالات يعني تعدي حدود الله، وأنه في أقصى درجاته: الشرك بالله والكفر بنعمه.

فقد رأينا أن الذي يخرج زوجته من دارها بدون أن تأتي بفاحشة مبينة ظالم لنفسه. وهنا نجد أن بني اسرائيل قد ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل. فالموقف من النفس في كلتا الحالتين واحد وهو ظلمها، غير أنه هنا يصل إلى قمته بتنصيب اله آخر هوالعجل وترك عبادة اللهالرحمن الرحيم الذي نجّى هؤلاء من فتنة فرعون وملئه. وما يدلنا على أن الشرك بالله هو أعلى درجات ظلم الإنسان لنفسه، الحكم الذي حكمه الله على بني اسرائيل حتى يقبل توبتهم وهو أمرهم بقتل أنفسهم «فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم»[2].

إن الخالق البارىء قد يتجاوز على النفس عديد أخطائها، ويغفر عديد زلاتها، وقد لا يكترث في كثير من الأحيان لسعيها وراء شهوتها، إلا أنه يغضب بالفعل ويتخذ موقفا واحدا صارما حاسما في حالة إشراك هذه النفس به إلها آخر. ولذلك استعمل اسمه البارئ هنا تأكيدا على صفة الخالقية وأنه كما برأ الخلق يتبرأ من ولا يتهم إذا أشركوا به. إن الشرك تجاوز للحد الأعظم، وإذا أشركت

(١) _ سورة البقرة: ٥٤

(٢) _ السورة نفسها والآية.

النفس فلا يرجى منها خير، ووقوعها في الشِّرْك دليل على أنها وقعت في شَرَك الشيطان. فالشِّرك هو فخ الشيطان المحكم. ومن وقع فيه فهو نصيبه الذي لا يفرط فيه، وهو حقه المتفق عليه. ولا ريب أن الشيطان لا يترك هذا النصيب على ما هو عليه، بل لا بد أن يحنطه في معبده، وأن يحكم أسره ويعلّمه بعلاماته. فما الحل حينئذ ؟ ويجيب القرآن الكريم:

«فاقتلوا أنفسكم». هذا الحكم الذي يبدو ظاهريا حكما قاسيا هو الأمل، وهو باب الخلاص[1].

قلنا إن الشيطان يملك النفس إذا أشركت وتصبح بمقتضى الاتفاق من نصيبه وحظه من البشر. وهنا إما أن تنتهي اللعبة فقد وقعت الفريسة في الفخ، وإما ان تحدث المعجزة. والمعجزة بالفعل هي التي تحصل بإذن الله .

أما إن الشيطان قد أخذ النفس المشركة واحتنكها وأصبحت بمقتضى الشرك ملكية له، فهذا مبدأ متفق عليه ولا سبيل إلى تغييره.

إلا أن هناك بابا آخر لإنقاذ الإنسان، ويكون هذا المخرج من عمل الإنسان نفسه. فماهو؟

إنه يتمثل في أن يقتل الإنسان نفسه، وإن شئنا التعبير بمصطلح

(١) _ حقا إن ما جاء في كتب التفسير من كون بني اسرائيل قام بعضهم إلى بعض وذلك بعد أن ظلموا أنفسهم باتخاذهم للعجل، فقتل بعضهم بعضا ولم يبال الرجل منهم من قتل إن كان أبا أو أخا حتى قُتل منهم سبعون ألف رجل فعندئذ تاب الله عليهم. أقول، هذه الروايات لا يخفى مصدرها الإسرائيلي وهي ظاهرة الوضع متهاوية ،فمثل أولئك الصمّ العمي البكم إلا من رحم الله ما بلغوا في الإيمان هذا المبلغ، وما تحكموا في أنفسهم هذا التحكم حتى يقتلوها. وهم أشد خلق الله كرها للموت بصريح آيات الذكر الحكيم ناهيك أنهم ما إن أعلنوا التوبة عن اتخاذ العجل حتى جاهروا موسى عليه السلام بما لا يقل عن اتخاذهم للعجل من سوء الأدب مع الله تعالى فقالوا أرنا الله جهرة. انظر تفصيلا لهذه الروايات الواهية ، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٨٦ وما بعدها.

آخر فلنقل: أن ينتحر.

أجل ليس أمام الإنسان من حل إلا ان ينتحر هنا، ففي انتحاره حياته ونجاته وتوبة الله عليه.

ولنذكر ما يفعله بعض أسرى الحروب ممن يوقع بهم الأعداء. إن بعض هؤلاء إذ يعلمون استحالة الخلاص من عدوهم واستحالة النجاة من كيده يقومون بابتلاع السم نكاية بالعدو وحفظا لأسرار بلادهم ومحافظة على شرف النضال.

هذا بالضبط العمل المطلوب بالنسبة للنفس التي أوقعها الشيطان في الشرك بالله، لابد لها من طهارة ولا تتم إلا بالدم: أن تنتحر قبل أن يقدم بها الشيطان على ربه ليجعلها حجة له أمامه على أنه الصادق يوم رفض السجود للإنسان.

لأنه إن قدم بها ضمن قلادته الشيطانية وضمن عبيده الملاعين، فلن تخلص وأيم الله من النار، بل إن الشيطان قد يطمع في أن يجد الحجة والتخفيف، أما هي فلا حجة ولا تخفيف.

إن المحارب الباسل يشرب السم حفاظا على شرف النضال. وهذه النفس وحفاظا على حرمة اسم الله الله البارئ الذي نسيته، يجب عليها أن تنتحر. وانتحارها موتها الاختياري أمام الله ومن أجل الله وفي سبيل الله وتوبة إلى الله.

فإن فعلت ذلك فحينئذ عسى الله أن يتوب الله عليها. وتكون التوبة هنا بظهور نفس جديدة عوضا عن النفس الأولى الميتة قصاصا وجزاء وفاقا. يقول تعالى لبني اسرائيل «فاقتلوا أنفسكم». هنا تأكيد على أن العقل يبقى محاسَبا على مصير النفس في كل الأوقات بل في أشد اللحظات صعوبة وأسوأ أوقات النفس وأردئها. يجب أن لا ينهار مشروع الإنسان، ومشروع الإنسان هو مشروع العقل المؤمن المستنير الحر الذي يرفض عبادة غير الله.

وعلى الإنسان أن يناضل بشرف وبشراسة في سبيل هذا البقاء وعليه أن يعلم أنه فوق الأرض في حرب، وأنه لابد أن يتزود بآلة الحرب وأن يدخل في قاموسه كل مصطلحات الحرب والنضال والقتال والانتحار والبعث والإحياء والصدمة والعودة والكر والفر والخدعة والصبر والصمت.

وعلى الإنسان أن يعلم أنه قد هبط هو والشيطان معا إلى الأرض، وأنه لن يرجع إلى الجنة إذا رغب في الرجوع إليها، إلا وحده. وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقتل الشيطان. أما الشيطان، فيئس من العودة يأس الكفار من أصحاب القبور. غير أنه وبفعل اليأس هذا، أراد أن يعبث بكل المشروع وأن يحطم الأمل، وهو يعمل في سبيل هذا بكل قواه. إن أسعد لحظات وجوده الفاسد أن يدمر أجنحة هذا الإنسان، وأن يجعله حشرة زاحفة على بطنها تزداد تواريا في الأرض والتصاقا بها لا هروبا منها.

أن يقتل الإنسان نفسه يعني ظهور نفس أخرى، لأن مشروع الإنسان هو مشروع النفس. وهذه النفس الأخرى هي النفس المطمئنة. وفي فعل الحرب والقتال تصل فعالية الإنسان إلى منتهاها،وتصل قتاليته إلى قمتها.وبهذه الصرامة يستطيع أن يتجنب مصيرا مرعبا. إنها مغامرة المغامرات والمخاطرة الأكثر إثارة، تلتقي فيها كل المشاعر، وتبرز فيها كل معاني إنسانية الإنسان، كيف لا وفعل التدمير يصبح فعل البناء، وفعل الفناء يصبح فعل البقاء. وبهذا يستعاد الشرف الإنساني.

فالشرف الإنساني لا يستعاد إلا بالشهادة. وبالشهادة فقط يبرأ الإنسان إلى البارئ من نفسه فيتوب عليه. ولذلك فمشروع الإنسان في الإسلام هو مشروع الشهادة. ولذلك كانت الشهادة تعني دخول الإسلام وترك الشرك في لحظة واحدة؛ فجمعت بين النفي والإثبات. ذلك على التحديد معنى قولنا «لا إله إلا الله».

ويجب أن تبقى هذه الشهادة مطلقة خالصة صافية نقية، ويجب أن يكون الإنسان مستعدا لإعلانها في كل الظروف، في كل الأوقات وكل الأمكنة وفي أركان الأرض الأربعة. يقول تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو للوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيرا»[1].

ويقول تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون»[2].

الشهادة لله هي كلمة السر، وهي نواة مشروع العمل الإنساني فوق الأرض، وهي خصوصية الذين آمنوا لأن من خالفوهم العقيدة لا يقدرون عليها. وعبر منطق الشهادة، وعبر أسلوب الشهادة وضمن حقائقها العظمى، بتأسس معنى الذات ومعنى الحقيقة ومعنى الخلاص في الإسلام؛ بل إن الشهادة كما قدمها القرآن قادرة على أن تعرّفنا ومن خلال منهج قرآني واضح بسيط عميق وصريح ما معنى أن يكون الإنسان إنسانا، وما الهدف من الحياة الدنيا، وما هي أسباب النجاة؟

إن الشهادة باختصار، رؤية كاملة للإنسان، ومنهج تربوي إسلامي يهدف إلى ترقية الإنسان إلى أقصى مستويات الإيمان (العقل)، وإلى أقصى مستويات الفعالية (العمل) وذلك عبر إمداد متواصل للعقل بالحق، وتلك هي كيفية تنشئة العقل وتأسيس بنيانه في هذه الذات الإنسانية: أن نمده باستمرار بالحق في كل تجلياته ومعانيه، وأن نبعد عنه الباطل الذي هو سبب دماره.

حينئذ يصل العقل إلى إظهار كمالاته وفضائله. وفضيلته الكبرى

(١) _سورة النساء:١٣٥

(٢) _ سورة المائدة: ٨

وكماله الأسمى الإيمان اليقين الذي لا يتزعزع ولا يداخله الريب. أما قوة العمل فيقع ترقيتها بفضيلة الصبر. فعبر الصبر يتربى الإنسان على العمل.

وكلما ازداد في مسار الصبر، ازداد في قوة العمل. وكمالات العمل هي الصالحات، وأعظمها ما يشترك فيه مع الإيمان وهو عمل الشهادة. فالشهادة أقصى العمل بأقصى الإيمان.

وهنا نذكر قوله تعالى الذي منه نستمد : « والعصر* إن الإنسان لفي خسر* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»[1].

فسورة العصر واضحة الدلالة محكمة المعنى، كاشفة فاضحة لسر الإنسان. فالإنسان مشروع فاشل خاسر، وكيان فان،عدم وخراب يباب «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر». وقد جاءت هذه الصفات في آية واحدة لتدل على أن المقصود إنسان واحد هذه صفاته، وهذا الإنسان هو المؤمن عامل الصالحات المتواصي بالحق والمتواصي بالصبر. تلك أربع حقائق اثنتان منها للحقيقة (الإيمان – العمل الصالح) واثنتان منها للطريقة (التواصي بالحق والتواصي بالصبر) فمن التزم بصفتي الطريقة في هذه السورة، وصل بإذن الله إلى صفتي الحقيقة. وليس وراء ذلك مطمع لإنسان، لأن المؤمن أرقى البشر، وهو صاحب الجنة، وهو الذي لأجله شرف الله هذه الإنسانية،ولأجله قبل الله تحدي ابليس، ومن أجله سيسوء الله هذا الشيطان وعبيده الملاعين. وهو مفخرة الله، وباختصار إنه إنجاز إلهي صرف. وماذا تتوقع أن يكون إنجاز الله تعالى إلا أن يكون آية من الآيات الباهرات.فالمؤمن آية الله في هذا النوع البشري الهالك، وسبحان من يصنع من العدم وجودا قويا متينا صحيح النسبة إلى وجهه تعالى.

---

(١) سورة العصر:١-٣

تلك الصفات الأربع هي أركان الإنسان الأربعة التي إن أقامها أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، وتجنب بنيانا فاسدا مؤسسا على جرف هار.

وهذا رسم للذات الإنسانية الشريفة المبنية على أركان أربعة صحيحة على هيئة الكعبة الشريفة.

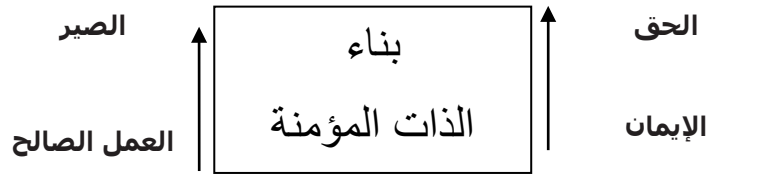

إذا قامت أركان هذه الذات نهض الإنسان واستوى وتجنب بإذن الله آفات العدم الذي يلاحقه بلا هوادة وضمن البقاء؛ لأنه بهذا البناء الصالح يدخل الوجود، ويندمج ضمن أهله الباقين سلام الله عليهم إلى أبد الآبدين وجعلنا منهم (اللهم آمين).

هذا الإنسان الذي رأينا أنه ذات تبنى وبيت ترفع أركانه وتقام قواعده هو الشاهد والشهيد، وذلك لأنه أصبح نفسا مطمئنة خالصة لله بما عقل نفسه في الله ومن الله وبالله.

فالعقل المؤمن لا يَعرف له وجها ولا معنى ولا حقيقة إلا وهي مستمدة من الله تعالى. فالله تعالى هو العقل الكلي[1] المصدر الممد للعقل المؤمن الأصغر ولذلك سماه الخليفة بدون اسم آخر

(١) _ نحن لا نستعمل هذه العبارات بنفس المعنى الذي يستعمله لها الفلاسفة وعلماء الكلام وكل من تكلم في هذه المواضيع، وإنما نستعملها بالقدر الذي نرى أنها توضح لنا معنى نستقيه من القرآن الكريم ونؤصله في هذا الكتاب العزيز.

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ...»[1].

فالخليفة هو هذا العقل الأصغر الذي هو صورة مصغرة من العقل الأكبر الكلي المحيط بكل شيء جل وعلا. فسبحان من نفخ من روحه فجعل الروح واحدا في الخالق والمخلوق وذلك أرفع النسب وأعلاه سبحانه، أسجد له بقلبي وأخرّ له شاكرا مؤمنا.

ولا عقل عندنا نحن المؤمنين بالله تعالى، إلا ما صنعه الله وبناه بيد عبده. فالتقى في بناء العقل تدبير الله مع جهدالإنسان فتمت الصنعة بالأمرين جميعا. فيكون هذا العقل المؤمن بهدي الله، المبني على عين الله، سفينة النجاة القادرة على الخلاص من الطوفان الغامر. يقول تعالى لنوح عليه السلام «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون»[2].

وفي سورة المؤمنون «فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون»[3].

ليس عجيبا أن يستعاد التأكيد على أن الفلك التي أنجت نوحا عليه السلام قد صنعت بأعين الله ووحيه في سورة هود وفي سورة المؤمنون.

وهذه الفلك سواء أكانت واحدة أم متعددة، والتي حمل فيها نوح من كل زوجين اثنين، وحمل فيها أمما ممن معه، استوت بفضل الله وتأييده. يقول تعالى «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا

---

(١) ٢ _ سورة البقرة : ٣٠

(٢) _ سورة هود:٣٧

(٣) سورة المؤمنون:٢٧

للقوم الظالمين»[1].

وفي سورة «المؤمنون» يقول تعالى «فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين* وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين»[2].

هناك أولا مسألة الاستواء مما يدل على خاصية العقل ومعنى النهوض والتمكن، يقول تعالى

«الرحمن على العرش استوى»[3].

فالاستواء هو التمكن والهيمنة والسيطرة، والعقل هو القوة التي إذا قامت في هذه المملكة الإنسانية هيمنت عليها وقامت فيها بواجب الاستخلاف المطلوب. ولذلك كان لابد للفلك من الاستواء. واستواؤها سكينتها وثباتها. فإذا كانالرحمن قد استوى على العرش، فإن الفلك قد استوت على الجودي. فما هو الجودي؟

جاء في لسان العرب :» والجودي : موضع ، وقيل جبل ، وقال الزجاج : هو جبل بآمد، وقيل : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح، على نبينا محمد وعليه الصلاة والسلام. وفي التنزيل العزيز واستوت على الجودي (...) وقال أمية ابن أبي الصلت سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبله سبح الجودي والجُمُدُ»

ونذهب والله أعلم، إلى أن سفينة نوح قد استوت بالفعل على الجودي، وأنه موضع بالجزيرة العربية، وأنه على الأرجح موضع المسجد الحرام. ونرجح والله أعلم، أن هذه السفينة العجيبة التي حمل فيها نوح من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول وأمم أخرى طوتها أكناف الغيب، هي نفسها الكعبة البيت الحرام

---

(١) _ سورة هود: ٤٤

(٢) _ سورة المؤمنون : ٢٨-٢٩

(٣) سورة طه:٥

الذي تجبى إليه ثمرات كل شيء، وهي الحرم الآمن الذي وضع في الأرض المباركة. قال نوح «وقل رب أنزلني مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين» إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين»[1].

فهل من مُنزل مبارك أحسن من موضع المسجد الحرام ؟

يقول تعالى عن نوح وسفينته «فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين»[2].

ففي قوله تعالى «إن في ذلك لآية»، تنبيه إلى أن هذه القصة لم تنته وأنها بقيت آية للعالمين. وقوله تعالى «إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية»[3].

ثم إن الكعبة البيت الحرام تقوم ومنذ أذان ابراهيم عليه السلام الذي رفع قواعدها واسماعيل عليه السلام، باستقطاب المؤمنين من الناس من كل حدب وصوب «وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود* وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»[4].

ومنذ ظهور الإسلام الخاتم كشف الله تعالى لنبيه محمدا عليه الصلاة والسلام عن القبلة الحقيقية وعن المسجد الحرام الذي جعله تعالى مثابة للناس وأمنا: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه

---

(١) سورة المؤمنون: ٢٩-٣٠

(٢) _ سورة الشعراء: ١١٩-١٢١

(٣) _ سورة الحاقة

(٤) _ سورة الحج: ٢٦-٢٧

الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون»[1].

وقد أعيد هذا التأكيد على التوجه نحو القبلة (الكعبة) أكثر من مرة، فالكعبة المشرفة هي قبلة صلاة المؤمنين. والصلاة كما هو معلوم عندنا، هي قمة الوعي لأنها لحظة اللقاء والصلة بالله تعالى. والله تعالى نور كله، فالصلة الصادقة به تعالى استنارة كلها.

فالكعبة هي همزة الوصل، وهي البيت الذي عنده يأخذ العقل الإنساني كمالاته وثمراته من العقل الإلهي المطلق المهيمن «وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يحيي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون»[2].

فالحرم الآمن يجبى إليه ثمرات كل شيء، فهو العقل الحاوي لكل خير، العاقل لكل منفعة وفائدة. فكل حكمة وكل ثمرة موئلها إلى البيت الحرام، وهي من نصيب المؤمنين. ولذلك يُحرم المؤمن في الحج إشارة إلى حرمة الالتفات إلى سوى الحرم ورب الحرم، لأن الالتفات إلى سوى الحرم الآمن جهل فظيع.

وهل يلتفت إلا من ضيع شيئا ؟ والمؤمن من آمن أنه بتولية وجهه للحرم وبتكبيره تكبيرة الإحرام عند الصلاة، فقد حرم عليه الالتفات؛ وهل يلتفت الإنسان إلى لحاجة ؟ وهل من حاجة لمحتاج إلا عند الله ؟ فكيف يلتفت إلى سوى الله من هو بين يدي الله إلا أن يكون غير محرم أصلا، ويكون من المنافقين الضالين أو المغضوب عليهم. يقول تعالى «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس... الآية»[3].

فالكعبة هي البيت الحرام، وهي قيام للناس أي بها يقومون.

(١) _ سورة البقرة: ١٤٤

(٢) _سورة القصص: ٥٧

(٣) _ سورة المائدة: ٩٧

فإذا اتجه الإنسان إلى الكعبة وجعلها قبلته ومقام روحه، فهو المسلم المنتمي إلى الأمة الوسط، الأمة الشاهدة على الناس. ولذلك ارتبط الحديث عن الأمة الوسط بمسألة القبلة والحديث عنها في سورة البقرة: «سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ»[1].

واضح أن الترابط متين بين قضايا الاستواء والمركز الوسط والشهادة والكعبة (المسجد الحرام). فالاستواء وهو التمكن والتمكين وهو تمام التأييد، إنما يكون في النقطة الوسط.

فكل وسط هو نقطة الاستواء كما هو معلوم للجميع. والقائم في المركز الوسط يستطيع أن ينظر باعتدال إلى كل النواحي لأنه على نفس المسافة من كل نقاط الدائرة لو أخذنا وسط الدائرة لنا مثلا. فإذا ما استوى موقعه من الكلّ، كان حينئذ قادرا على الشهادة على الكل «لتكونوا شهداء على الناس «.

وهذا المركز الوسط هو الكعبة البيت الحرام. فمن أَمَّها وجعلها قبلة، فهو من أمة الوسط الشاهدة على الناس لأنها بإذن الله لا تكون إلا غاية في الاتزان والوضوح والنظام. فالأمة الوسط هي قلب الأمم، وهي بفضل الله ومنّه وجوده وإحسانه، هذه الأمة من

(١) _ سورة البقرة : ١٤٢-١٤٤

الأميين الذين ما كانوا يعلمون ما الكتاب من قبل. فالأميون هم قلب الإنسانية، ورسولهم النبي الأمي هو الشاهد عليهم وهم على الإنسانية شهود. فقلب القلب هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا أكرم مقام وأقوى مركز وجد فيه بشر. والقلب هم الأميون أتباع الأمّي والمقتدون بسيرته والقائمون بسنته. أما بقية الخلق فهم محيط الدائرة، ويهدي الله لنوره من يشاء.

هكذا يتضح أن مسار الإنسانية هو مسار وعي وعقل، وأن من يصل إلى القمة في العقل، يصل إلى القمة في التمكين، وأن التمكين الحقيقي هو تحصيل الوعي الحقيقي. وهنا اختلف البشر واستحال عليهم الاتفاق.

فالوعي (قبلة البشر) تَمَثّله كل إنسان بكيفية معينة، ورأته كل أمة على معنى مخصوص. وقد امتازت هذه الأمة الأمية بالوعي الأكمل باتجاهها إلى العقل الكلي المهيمنالرحمن المُستوي على العرش، وعرشه تعالى بيته، وبيته الكعبة البيت الحرام.

فهو بيت الوجود، وقبلة أهل الوجود من البشر، وما عداهم عدم إلى الخسران يؤوبون. يقول تعالى متحدثا عن أهل الكتاب بعد أن بين لرسوله قبلته المرضية «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

لئَلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ منْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»[1].

هذه آيات بينات هاديات تكشف بوضوح عن اختلاف القبلات بين أهل الكتاب والأميين وبين أهل الكتاب فيما بينهم، وتحذر بقوة من أتباع أهواء أهل الكتاب؛ فقبلتهم قامت على الهوى، وقبلة الأميين قامت على العلم «ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين». فشتان ما بين قبلة الهوى وقبلة العلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لقد ظلم المسلمون أنفسهم اليوم باتباع أهواء أهل الكتاب، وهاهو ظلمهم لأنفسهم قد عاد عليهم بالوبال، فأصبحوا أشقى الأمم وأحقرها لا يستفيدون فائدة ولايكادون يرجون خيرا، وليس لهم حق تصريف أملاكهم الخاصة ناهيك عن تصريف شؤون الأرض. عزلوا عن كل شيء داخل ديارهم وخارجها، ويتصرف فيهم أهل الكتاب تصرف صاحب الدابة في دابته وهم يجدون في ذلك لذة وسعادة، ولا عجب فهم حثالة الأرض. وهل من حثالة أسوأ ممن أوتي المقام الرفيع والعز والمنعة والقبلة القائمة على علم الله والمنزّلة بوحي الله تعالى، فيعزف عنها ويسخر منها ويتجه بجوارحه وقلبه إلى قبلة أهل الأهواء والزيغ والبدع ؟

إن مسألة القبلة تحدد المسألة الحضارية في المنظور الإسلامي، وتؤكد على أن أرقى من تحضر من البشر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرقى من تحضر من الأمم الأميون عليهم بركات الله وصلواته، وأن هذه الحضارة هي قمة الحضارات، وأن ما عداها يقصر عن بلوغها. ولنا في ذلك مقال بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة: ١٤٥-١٥٠

و _ النفس الشريدة

يعطي الله تعالى أولوية مطلقة للعقل (الخليفة)، على النفس (أرض الخلافة)، ويؤكد تعالى أن الإنسان (العقل) هو صاحب نفسه وعمدتها ولو ادعى خلاف ذلك «بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره»[1].

وقد تبين لنا أن النفس الإنسانية تضطرب بين الطاعة والخوف، والتأله والعبودية، والاطمئنان والرضا والشح والسخط. وقد بيّنا أن حركة النفس ونوعية مشاعرها تكون بحسب عاقلها. ولا تخرج النفس عن أحد عاقليْن إما الله وإما الشيطان والواسطة في ذلك الإنسان (الخليفة = العقل النسبي).

ولذلك جاء الخطاب الديني وعلى وجه التخصيص الخطاب القرآني، مؤكدا على استخلاف الإنسان على نفسه وعلى حرية الإنسان في توجيه نفسه، ومطالبا إياه بتزكية هذه النفس وترقيتها وتوجيهها نحو الباقيات الصالحات وترك المحارم والموبقات. وكان خطاب الشرع خطاب نظام وتربية وحدود وبيان للحق والباطل والحلال والحرام والصدق والكذب حتى يسلك المؤمن بنفسه مسلك النجاة لا مسلك الهلاك. فصح أن خطاب الشرع هو خطاب نجاة بالأساس، وأن علمه هو علم النجاة.

يقول الشيخ محيي الدين ابن عربي رحمه الله «وغرضنا من العلوم ما يوصل إلى النجاة «.

ولقد بلغ من وضوح وصرامة خطاب الشرع في تأكيد قيومية الإنسان على نفسه حدا طالب معه الله تعالى بني إسرائيل لما ارتكبوا الجرم والظلم الأعظم وهو الشرك بقتل أنفسهم؛ حيث قال لهم الله على لسان موسى عليه السلام « يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ

---

(١) _ سورة القيامة: ١٤-١٥

أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ «[1].

وسواء أكان هذا الأمر محمولا على الحقيقة أو المجاز، فإنه صارم في تأكيد مسؤولية الإنسان على ما تفعل نفسه وعلى ما تهوى وتعبد. فإذا كانت أنفس بني إسرائيل قد هوت نحو الذهب ونحو العجل الجسد، واداركت نحو الأرض نحو فومها وعدسها وبصلها، فإنهم مطالبون حينئذ بتطهيرها. ولا طهارة من الظلم الأعظم والجرم الأعظم وهو الشرك لا سواه إلا بالقصاص، وهو قتل النفس. والله تعالى لا يهزل ولا يلعب، بل إنه محاسب كل إنسان على نفسه ولابدّ بما استحفظه إياها.

وعقاب الله لا ينفك عن الإنسان في الدنيا أو في الآخرة؛ لذلك لما أخلد بنو إسرائيل إلى الأرض وكرهوا التوحيد وهوت أنفسهم إلى التعديد برفضهم للطعام الأوحد الوحيد (الوحدانية)، ومطالبتهم بالأطعمة ألوانا وأصنافا (الشرك والتعديد)،

ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة. يقول تعالى «وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»[2].

لما استبدل بنو اسرائيل الذي هو أدنى بالذي هو خير، قضى الله عليهم بالهبوط «اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم».

فما داموا قد اختاروا الأدنى فليس لله تعالى أن يفرض عليهم الخير

(١) _ سورة البقرة: ٥٤

(٢) _ سورة البقرة: ٦١

فرضا تعالى الله عن مخالفة عهده ووعده بأن يكون الإنسان خليفة على نفسه حرا في توليها وتوجيهها، إلا أنه تعالى وقد أقرهم على ما أرادوا، ومكنهم من الهبوط اتخذ موقفه منهم « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله».

ذلك هو موقف الله تعالى من أصحاب النفوس الهابطة، وكما أنهم أحرار في نفوسهم، فإن الله تعالى «حر» في موقفه منهم.

وليس عليهم حينئذ وقد اختاروا لأنفسهم الضلال والإجرام، إلا أن يتحملوا نتائج كل هذا؛ فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

يقول تعالى في نفس الآية مبينا سبب غضبه عليهم وإذلالهم «ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»[1].

إن الله يرضى على الإنسان بأسباب الرضا، ويسخط عليه إذا اتخذ أسباب السخط.

وهذه قمة عدل الله تعالى وتنزه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ثم إن الله تعالى الذي خلق النفوس وجعلها محلا للاستخلاف، ليس مقصوده تدميرها ولا قتلها وسحقها تعالى الله وتنزه، بل إن هدفه تنميتها وترقيتها وتزكيتها، لأنه تعالى يعلم أن ابليس وراء كل نفس يطلب تدميرها ومحقها وسحقها واستعبادها وإذلالها. يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا *إِنَ تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

(١) _ سورة البقرة: ٦١

وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا»[1].

فالله الرحمن الرحيم يأبى قتل النفس، وما فرضه على بني إسرائيل إلا لما أصبحت أنفسهم حملا ثقيلا وامتلأت بالتعليمات الشيطانية. حينئذ كانت الرحمة في قتلها، لأنها لن تكون إطلاقا مصدر سعادة لهم ولا خير ولا نور، ولن تعطي إلا ثمرة فاسدة. إن موقف الله تعالى منهم مثل موقف صاحب البقرة تمرض وتعتلّ فلا يعرف لها دواء، فإذا استيقن أنها تؤول إلى الموت وأن لا رجاء في معافاتها أسرع بذبحها. فيكون في ذلك راحتها من الألم ومنفعته هو بأكل لحمها عوض أن يصبح فيجدها جيفة لا فائدة منها إلا للكلاب والقطط.

إن شعب بني إسرائيل المتمردين هم البقرة (النفس الإنسانية) في أسوأ حالات مرضها واهترائها وعللها. وهذه البقرة العليلة بعلة صميمية لا إمكان لقيامها، فلا رجاء في أن تستعمل لحرث ولا لمنح حليب، بل إنها إذا قامت فلكي تسقط من جديد.

والعجيب في تقدير الله العزيز الحكيم أنه أمرهم أن يذبحوا بقرة «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين»[2].

إن هذه البقرة التي أمرهم الله بذبحها هي جماع نفسهم الفاسدة التي لم يقتلوها بحسب أمر الله لما دعاهم إلى ذلك صراحة، فأنفذ الله تعالى حكمه فيهم بذبحهم هذه البقرة بأيديهم. وقد بدا من كثرة أسئلتهم واستفساراتهم أنهم استثقلوا الأمر حيث سألوا عن ماهيتها وعن لونها...وقبل ذلك قالوا لموسى لما أمرهم بذبحها «أتتخذنا هزوا»، وما هي في الحقيقة إلا أنفسهم العقيم التي أجدبت فجاء لون البقرة كلون الأرض المجدبة «قالوا ادع لنا ربك

(١) _ سورة النساء: ٢٩-٣١

(٢) _ سورة البقرة: ٦٧

يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»[1].

فليت شعري ماهي هذه البقرة الصفراء الفاقع لونها والتي تسر الناظرين إن لم تكن ذلك العجل من ذهب الذي عبدوه لأنه سرهم منظره وبهرهم بريقه. فذلك العجل الذهبي الذي أشربوه في قلوبهم، هو الذي انقلب بقرة بفعل المحل الذي دخله وهو النفس الإسرائيلية فتأنث لأنه دخل محلا مؤنثا هذا من ناحية، ولأنه أيضا وفي الحقيقة قوة أنثوية لا سلطان لها إلا بالنسبة لأصحاب الرؤية الظاهرية أي للناظرين، حيث قال «تسر الناظرين».

فبنو اسرائيل عبدوا العجل الجسد الذهب ذا الخوار لمّا رأوا فيه القوة والبريق نتيجة للنظرة السطحية (القشرية).

وقد أراد الله أن يبين لهم أن هذا البريق ليس سوى مظهر وطلاء خارجي، وفي الحقيقة فليس للذهب سلطان إلا على الغاوين الذين يؤلهون الإناث ويجعلون منها آلهة ذات سلطان «إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا»[2].

هذه البقرة الصفراء الفاقع لونها والتي تسر الناظرين، لا تقدر على عمل نافع مما تقوم به الأبقار عادة، ولذلك فلما لجّوا في السؤال «قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون»[3].

أجابهم الله تعالى بوضوح كاشفا عن حقيقة هذه البقرة «قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون»[4].

(١) _ سورة البقرة:٦٩

(٢) سورة النساء :١١٧

(٣) _ سورة البقرة:٧٠

(٤) _السورة نفسها : ٧١

لقد لجّ بنوا اسرائيل في التنصل من تبعات عبادة العجل، وأنكروا ما فعلوا، فحكم الله عليهم بقتل أنفسهم فعصوا,[1] وهذا واضح في تعاملهم مع ذبح البقرة حيث لم يتجهوا مباشرة إلى تنفيذ الأمر بل سألوا عن ماهيتها ثم عن لونها ثم أعادوا السؤال عن ماهيتها، وفي كل ذلك كانوا يتهربون من شيء، وهذا الذي يتهربون منه والله أعلم، هو جرمهم الفظيع باتخاذهم العجل، حيث أهلكوا أنفسهم بهذا الصنيع المرعب. ولقد حاولوا أن يتلاعبوا، وأن يستعملوا الآيات المتشابهات: «إن البقر تشابه علينا».

فأي بقر هذا الذي تشابه إن لم يكن أنفسهم التي اختلط عليها المعنى فطلبت الرحماني في الشيطاني، فآلت إلى استبدال عبادة الله بعبادة عجل الذهب.

وكان الله واضحا صريحا فدمغهم بآخر الحقائق لما قال لهم «إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون». تلك هي النفس الاسرائيلية لا فارض أي مسنة هرمة ولا بكر أي صغيرة، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، أما لونها فـ»صفراء فاقع لونها تسر الناظرين» أما عملها فلا شيء «لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث». وقد نفذ فيهم الله حكم بقتل أنفسهم، وسواء علمه من علمه وجهله من جهله منهم، فإنهم في ظاهر الحال اعترفوا وأقروا بكل ما وصفهم الله به «قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون»[2].

---

(١) لاعجب، فهم أئمة الضلال وأساطين العصيان بدون منازع ، وموقفهم الذي يسجله عليهم القرآن الكريم كلما دعوا إلى السمع والطاعة لربهم هو قولهم :» سمعنا وعصينا» قال تعالى :» وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم» وعبارة أشربوا محكمة الدلالة على أن الكفر قد خالط أنفسهم فتشربته تشرب الصوف للماء.

(٢) _ سورة البقرة: ٧١

لماذا ذبحوها ؟ يجيب القرآن «وإذا قتلتم نفسا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون»[1].

فلما ذبحوها أحيا الله باللحم الميت نفسا حية قتلوها وادّارؤوا فيها «كذلك يحيي الله الموتى». فصنع الله تعالى من الموت حياة، وتلك آية الله تعالى الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي سبحانه وتعالى عما يصفون. فالنفس المقتولة التي كتموا سر قاتلها وادارؤوا فيها، هم الذين قتلوها «و إذا قتلتم نفسا»، وما هي في الحقيقة إلا نفسهم المظلومة قتلوها بعبادة العجل. فحكم الله بقتل النفس البغي «البقرة الصفراء الفاقع لونها» رغم أنها تسر الناظرين، لكي تخرج نفس جديدة يحييها الله بكرمه ورحمته، ويجعلها آية لبني اسرائيل. لذلك قال لهم «كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون»[2].

فدعاهم إلى العقل وهو عقل المعنى في حقيقته بحمل الأمر على باطنه وحقيقته لا على ظاهره؛ لأنهم إن فهموا سر الأمر بذبح البقرة، وإن عقلوا حقيقة البقرة بعد أن بينها لهم بدون لبس ولا غموض «صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»، وإن عقلوا كيف يتم إحياء النفس الميتة بإذن الله وقد رأوا آية أمام أعينهم، حينئذ يتحررون من أسر الظاهر، ومن هيمنة الذهب الأصفر الفاقع لونه الذي يسر الناظرين. فهل استوعبوا الدرس وعقلته قلوبهم؟.

تجيبنا الآية التي بعدها مباشرة بالنفي «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإن منها لما

---

(١) _ سورة البقرة: ٧٣

(٢) السورة نفسها: ٧٣

يهبط من خشية الله وما الله بغافل عمّا تعلمون»[1].

مأساة بني اسرائيل بل جريمتهم النكراء أنهم لا يعترفون لقلوبهم بشيء، وأنهم لا يعقلون بقلوبهم بل بأعينهم؛ ولذلك تحجرت هذه القلوب وقست نتيجة للإهمال. وإهمال القلب يكون بنسيان آيات الله والغفلة عنها. فآيات الله عقلها وفهمها والإيمان بها هو غذاء القلب.

لذلك لم يكن الأمر بقتل النفس عاما، بل توجه نحو بني اسرائيل خاصة لما كفروا وأشربوا العجل يقول تعالى : «..و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين»[2].

أما المؤمنون، فقد أمرهم الله بأن لا يقتلوا أنفسهم، ونبههم إلى أن قتل النفس عدوانا وظلما يؤول بصاحبه إلى النار.

وقد مهد الله تعالى للأمر بعدم قتل النفس بقوله في نفس الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما»[3].

فكان التمهيد حاويا لأسرار الحفاظ على النفس وهي الالتزام بحدود الله تعالى. فإذا التزم البشر بالحدود العادلة في التعامل فيما بينهم، ولم يعتد بعضهم على بعض، فإن مشاعر سحق النفس واحتقارها والرغبة في قتلها تقلّ، لأنه حيث يكون الظلم تموت النفس. فالنفس الإنسانية لا تحيا في أجواء الظلم بل تموت وتضمحل، ذلك قانون الهي صارم، وهو ظاهر إذا تأملنا حياة الإنسان أفرادا ومجتمعات. فالأفراد الذين تجاوزوا الحدود بالاعتداء والطغيان سواء كقابلين أو كفاعلين، آلوا إلى ظلم أنفسهم وسحقها.

(١) السورة نفسها : ٧٤

(٢) _ سورة البقرة:٩٣

(٣) سورة النساء:٢٩

وهكذا استوت في الانسحاق أنفس المجرمين وأنفس ضحاياهم الذين رضوا بالقتل دون دفاع عن أنفسهم.

أما المجتمعات التي تفسد قوانينها بزوال العدل وشيوع الظلم والنهب، فإن ميل الناس فيها إلى شتى مظاهر ومعاني قتل النفس واضح تنبئ عنه الدراسات والإحصاءات الاجتماعية. وليس أدل على ذلك مما يقع اليوم في البلدان الرأسمالية ذات الاقتصاد الربوي من عزوف عن الحياة وإقبال الناس على إنهاك أنفسهم وتدميرها بكل الوسائل والطرق.

وبعد النهي عن قتل النفس عدوانا وظلما يقول الله تعالى:»إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما»[1] .

فأشار إلى القانون العام الضامن لبقاء النفس وحياتها والموصل إلى رحمته تعالى المتمثلة في العفو عن الإنسان والتوسيع عليه. فالله تعالىالرحمن الرحيم الغفور لن يؤاخذ الإنسان بكل شيء، بل يدعوه إلى اجتناب الكبائر التي إذا اقترفها أهلك نفسه وغيره. فإذا فعل ذلك، فإن الله يغفر له صغائر ما يرتكب من ذنب. وهكذا يحرر الله الإنسان من العقد النفسية المرتبطة بمشاعر الذنب خاصة؛ ورغم أنه وحده الحسيب الرقيب، إلا أنه لا يطرح رقابته كفعل تدميري للإنسان بل يحرض هذا الإنسان على إحياء نفسه بعمل الصالحات وتجنب المنكرات. إن الله خالق النفس وبارئها يعلم خفاياها وأسرارها «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»[2].

يعلم الله تعالى أن النفس ليست ذات حياة مطلقة، وإنما هي وجود مشروط تماما مثل الجسد، لابد له من هواء وماء وطعام

(١) سورة النساء:٣١

(٢) _ سورة ق : ١٦

وكساء...بل إن هذه النفس هي هذا الجسد ذاته، وقد رأينا أن النفس بمعنى الجسد لدى اللغويين. فإذا كانت النفس لا تحيا إلا بنظام وضمن شروط، فلابد للإنسان حينئذ من مراعاة هذه الشروط وحفظ هذه الأنظمة التي بها قوام حياتها، وتلك هي حدود الله. فحدود الله هي الأنظمة الحافظة للحياة، يقول تعالى «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون»[1].

فالقصاص هو الجزاء العدل، هو الحافظ لحرمات الله أن تنتهك. وإذا كان هذا جارٍ على مستوى الأبدان فأولى وأحرى أن يجري على مستوى القلوب. ولذلك نبه الله تعالى بقوله «يا أولي الألباب»، أي أن مسألة القصاص وأحكام الحدود الموجودة في ظاهر التشريع تصحّ كلها على باطن الإنسان، أي على نفسه في أحوالها الباطنة، في إيمانها وشركها، في عدلها وطغيانها.. في فجورها وتقواها.

(١) _ سورة البقرة: ١٧٩

فهرس الموضوعات

• تمهيد 5

1 _ سفر التكوين 7

2 _ النفس والروح 15

3 _ النفس الأمارة بالسوء 28

4 _ النفس المطمئنة 32

5 _ وشاهد ومشهود : 39

أ _ استكبار النفس 43

ب _ استكبار العقل 51

ج _ استخلاف العقل على النفس 56

د _ نفس تهب نفسها 83

هـ _ النفس الشهيدة 84

و _ النفس الشريدة 98